نظرات جوتا أو (جيتا)[1]

ـ ١٦ ـ

جوهان وُلْفجانج فون جوتا أو جويتى الأديب الشاعر العالم الألمانى ـ ربما كان بين الناس من بلغوا منزلته، أو بَذُّوه فى النثر أو الشعر أو العلوم المختلفة أو النقد، ولكن لم يكن بينهم من بلغ شأواً كبيرًا فى كل هذه العلوم والآداب كشأوه الكبير، ومنزلته العظيمة، ومن أجل ذلك كان عجيبة زمانه، وليس عظم منزلته فى فنٍّ أو علم أو أدب واحد، ولكن عظم منزلته فى تبريزه فيها كلها، وقد كان شعاره تكميل النفس بالثقافة من كل مصدر وباب، وله فى العلوم كشوف لم تكن معروفة من قبله، ولو أنه أخطأ فى تخطئة نيوتن العالم الإنجليزى، وكانت له رسائل فى النقد فى الفنون المختلفة والآداب، وقصصه التمثيلية بعثت فن التمثيل فى ألمانيا، كما أن قصصه غير التمثيلية مهدت السبيل لفن القصص، ومن الغريب أنه اشتهر بيننا بأقل مؤلفاته منزلة عند النقاد، وأعنى قصة أحْزان وِرتْرَ التى ترجمت إلى العربية، وكان قد ألفها فى شبابه فى العهد الذى أسماه عهد العاصفة والشدة، وله محادثاته لأكرمان، ومراسلاته لشيلر الشاعر، وترجمة حياته التى سماها (الحقيقة والخيال)، ولكن القصة الشعرية التى اشتهر بها فى ألمانيا وبين الأدباء والمفكرين هى قصة (فوست)، والجزء الأول أسهل من الثانى، ولم يتم الجزء الثانى إلاَّ بعد أن بلغ الشيخوخة، وأودعه فكره وفلسفته فى قالب شعرى خيالى. وقد كان جوتا يعيب على شعراء الرمزية جعل الشعر أوهامًا وأضغاث أحلام لاحقيقة تحتها. ومع ذلك فقد كان يلجأ إلى الرمزية للتعبير عن الحقائق التى كما قال لاتُصوَّر إلاَّ بها، ولم يكن يعيب الرمزية

(١) المقتطف : يونيو سنة ١٩٤٩.

فحسب، بل كان يعيب المذهب الخيالى (الرومانتيكى)، وقد لفته صديقه شيلر إلى مافى شعره من هذا المذهب، ولا غرابة فإن من كانت نهمة بحثه وفكره وخياله لاتشبع، ربما لجأ إلى هذا المذهب. ولعلَّ إمرْسُون الأديب الشاعر الأمريكى قد كان يعنى ذلك فى قوله إن جوتا وصل فى بحث مايمكن عرفانه إلى حدود المجهول، ثم خطا خطوة وراء تلك الحدود وعاد سليمًا!!!.

وهذه مبالغة طريفة. ولكن من يحاول أن تكون له ثقافة متنوعة كثقافة جوتا لابدَّ أن تَفدَحُه وتَبهظَهُ، وله كلمة يعترف فيها أنه ركب الشطط فى طلب هذه الثقافة. وإنما يهمنا فى هذه المقالات نظراته فى النفس الإنسانية، وهذه النظرات تعطيك فى القراءة الثانية أكثر مما تعطيك فى الأولى، وقد اخترت بعضها لأظهر أنه لم يكن أقل بصيرة ممن كتبوا فى صفات النفوس من أمثال مونتانى، وباكون ولاروشفوكولد، ولابرويير. ولايعجبنى مسلك النقاد الذين يريدون الحط من قدر غيره ظنا أن ذلك يرفع قدره، ولامسلك المغالين فى إعظامه، حتى يكاد الإعظام يبلغ مرتبة التقديس والتنزيه. كما لايعجبنى مسلك الذين يحطون من قدره لأن له مواقف غرامية كثيرة، أو لأنه لم يكتب قصائد ليشعل الحقد والبغض فى نفوس الألمان، وهم يحاربون الفرنسيين لطردهم من ألمانيا. ومن الغريب أنه جمع بين سهولة الأدب الكلاسيكى القديم والطريقة الفلسفية أو الخيالية الألمانية المعقدة. وقد اعترف بنزعة المفكرين الألمان إلى هذا التعقيد، فكأن مؤلفاته بناء جمع بين الطريقة الإغريقية التى كانت تنحو نحو السهولة، وبين طريقة البناء القوطى التى تنحو إلى غير ذلك.

وقد درج بعض الكتَّاب على انتقاص لاروشفوكولد، ومدح جوتا، بدعوى أن الأول يكثر من اتهام النفس الإنسانية بالأثرة، كأن جوتا لايفعل مثل فعله، وسيتضح أنه يفعل ذلك، ولابدَّ لباحث النفس أن يفعل.

وهذه بعض نظراته مع التعقيب عليها:-

١ - فى النفس قاعدة سيكولوجية، وهى أنها تحاول أن تحوِّل موضع ضعفها ونقصها إلى مبدأ عام ممدوح. ومن أمثال ذلك: أن بعض الناس يحسبون التَّأنِّى الذى سببه الخوف الكامن قوة لايغلبها غالب، ولا يقهرها قاهر، مع أن إحجامهم

قد لايكون تَبَصُّرا وحزمًا. وكذلك نرى الضعفاء الذين يعتنقون الآراء الثورية يحسبون أنهم يكونون أسعد حالاً باعتناقها، ويكون الناس كذلك فى أرغد عيش وحال، ولا يفطنون إلى أن ضعفهم يمنعهم من حكم أنفسهم ومن حكم الناس - وفى هذه النظرة أكثر من ذلك، فكما أن القاعدة أن النفس تُزَين موضع ضعفها، فهى أيضًا تُقَبِّح وتُصَغِّر ماليس فيها من الصفات التى تستطيع التخلق بها. فإن من لايساعده طبعه على التخلق بآداب السلوك.، يرى أن آداب السلوك ضعف، ومذلة، ونقص وتقبيح ماليس فى نفسه من الصفات الحمد فى بعض الأحايين كى يحسب الناس أنه إنما مدحها لأنها من صفاته، إذ أن النفس لها وسائل مختلفة متناقضة، تحاول بها كسب المدح والإعظام.

٢ - مهما عاش الإنسان فى عزلة عن الناس منفصلا عنهم بأفكاره وإحساساته وأعماله، فإنه لابد أن يكون إما مدينًا وإما دائنًا لغيره فى تلك الأمور كلها أو بعضها. ولكن القاعدة هى أن الناس إذا قابلوا إنسانًا مدينًا لهم بفضل، تذكروا ماهو مدين لهم به، وكانوا أسرع إلى التفكير فيما دانوه به من الفضل. أما إذا قابلوا إنسانًا هم مدينون له فإنهم قلما يذكرون فضله عليهم، أو إذا ذكروه أسرعوا إلى تجاهله، ويضايقهم مايلح فى تذكيرهم به.

٣ - إن صفات النفوس تظهر فى أعمالها ومعاملاتها، ومن أجل ذلك يخطئ من يظن أنه يستطيع أن يعرف صفات نفسه بالفكر وحده، وبالتأمل فى نفسه من غير أن ينظر إلى صفاتها فى أعمالها. والواقع أن النفس تحاول أن تفصل عمدًا بين الأمرين، وهذا الفصل قاعدة سيكولوجية فيها، لأنها تعرف أن العمل قد يغريها بالتخلق بصفات ذميمة ماكان يتخلق بها المرء لولا اضطراره إلى العمل والمعاملات. فكثيرًا ما يتجاهل المرء عمدًا صفات نفسه التى يظهرها اضطراره إلى العمل والمعاملات ويكتفى بالحكم بصفات نفسه غير المضطرة، وهى صفات أرقى وأطهر، وقد شبه جوتا نوعى الصفات بالسُّدَى واللُّحْمَة فى النسيج أو بالزفير والشهيق فى تنفس الإنسان الحى. وقال إنه لايستطاع معرفة النسيج من السُّدَى فحسب، أو من اللُّحْمَة وحدها، بل من الاثنين معًا. ومن أجل ذلك يغيظ المرء أن تذكره بصفاته التى تظهرها أعماله ومعاملاته. لأن هذا الفصل بين نوعى

الصفات يساعد المرء على التخلق بما يشاء من صفات السوء وهو مطمئن راض عن نفسه.

٤ ـ لو كان انحياز الإنسان للباطل سببه خطأ الفكر من غير أن يكون الباطل متصلاً بميول نفسه ونزعاتها وعواطفها وأخلاقها، سهل تصحيح الباطل وتلافيه، ولكن اتصاله بها يجعل تصحيحه وتلافيه أمرًا شاقا أو مستحيلاً. ومن أجل ذلك إذا استعصى على الإنسان تصحيح خطأ أو باطل فى نفس إنسان آخر خدع نفسه، وأوهمها أن ذلك الخطأ وأن ذلك الباطل من ضلال فكر صاحبه ومن أغلاطه العقلية غير المتصلة بإحساساته ونزعاته، وإنما يغالط نفسه هذه المغالطة كى يجعلها تأمل إزالة ذلك الباطل إذا كان لها خير فى إزالته؛ إذ أنه يدرك بالفطرة أن مكافحة الخطأ الفكرى الخالص من شوائب النفس أقل مشقة وأيسر مئونة وكلفة. وهذا يعلل أمل بعض الناس فى التفاهم مع من لايرجى التفاهم معهم وإقناعهم بما لايمكن إقناعهم به. ولاسيما أن الأمل فى التفاهم إذا ازداد صير توقعه حدوث التفاهم كأنه قد حدث كما هو شأن الأمل فى أى أمر آخر. فإذا استجدت أسباب تغير من نزعات من لايريد التفاهم ومن ميوله النفسية حتى يرى فى التفاهم نفعًا له لبس الزَّهوَ مجادله ونسب هذا التغير إلى قدرته على الإقناع بالفكر ولباقته وكياسته فيه.

٥ ـ إن الفكر قد يصحبه شعور شديد، وهذا الشعور له أثر عظيم فى الحياة، وهو نافع إذا استطاع المرء أن يمنع نفسه وهو يفكر من الانسياق فى تيار سيله؛ لأنه إذا لم يستطع حكم شعوره وضبطه لم يستطع أن يصحح رأيه وأن يعالج ميل نفسه إذا حادت عن الصواب وأن يعرف حدود فكره، ولكن من العجيب أن المرء كلما انساق وجرفه تيار سيل الإحساس فى مجادلاته ومناظراته قال الناس إنه صادق السريرة، إذ لولا اقتناعه بصواب رأيه ما انساق مع الشعور الشديد فى التعبير عنه وفى مناظراته. ثم يتخذون حكمهم بصدق سريرته حكمًا بصواب رأيه. والشعور المنفعل فى إنسان قد يستنبط مثله فى غيره بالقدرة والإيحاء، وقد أوضح شارلز لامب فى رسالة الأغلاط الشائعة بطلان هذا الرأى وهذا الحكم؛ لأن الشعور الشديد قد يكون ناشئاً من النزعات النفسية التى قد تتخذ الفكر مطية

لتبلغ به غايتها وأن كانت غاية باطلة، أو لتخذه ستاراً يحجب عن صاحبها وعن الناس كنهها وحقيقتها المستترة وراء الفكر. وصدق السريرة إذا فرضنا وجوده فى صاحب الشعور الشديد لايمنع من الانحياز للباطل كما قال جوتا: أستطيع أن أعد أن أكون صادق السريرة، ولكنى لاأستطيع أن أعد بألا أنحاز مع صدق السريرة إلى الباطل؛ لأن صادق السريرة يجهل انحياز نفسه إليه بحكم صدق سريرته.

٦ ـ إن معرفة الصواب لاتمنع من مواقعة الأخطاء التى يصححها ذلك الصواب إذا كانت أخطاءً متصلة بميول النفس فتكون حبيبة إلى النفس، وتأبى العواطف على المرء إلاَّ أن يعود إليها. وكذلك الخطأ فى الأمور النظرية أو العملية التى ليست متصلة اتصالاً وثيقاً بعواطفنا تعود إليه بعد معرفة الصواب إذا لم يفسر وجه الخطأ وسببه ومكانه وحدوده تفسيراً مقنعًا يؤدى إلى رسوخ الصواب، فإن من يكتفى بشرح الصواب من غير نظر إلى الأخطاء التى يقع فيها الناس ومن غير تفسيرها قد يبذل جهداً عظيمًا ويتكلف مشقة هائلة، ولكن قد يكون علمه كله عملاً ضائعًا لا أثر له. وقد يتعجب لضياع عمله وجهده ويدهش لأن تعبه فى شرح الصواب لم يثمر؛ وذلك لأنه لايفطن إلى أن شرح الصواب لايكفى إذا لم يشرح الخطأ أو الأخطاء إذا تعددت، وهذه قاعدة هامة فى التعليم إذا أهملها المعلم ضاع عمله وحبطَ كل الحبوط. ومن أجل ذلك قد يظن المناظر ظَنا باطلاً أنه فند رأى مجادله أو مناظره إذا شرح رأى نفسه ولم يلتفت إلى رأى منافسه فى المناظرة ولم يبين أوجه الخطأ فيه، وقبل أن يفعل ذلك ينبغى لكل مناظر أن يذكر رأى خصمه بدقة حتى يثق من أنه يعرفه تمام العرفان فلا يجادل فيما هو خارج عن الموضوع وهو يحسب أنه موضوع رأى مناظره. وجوتا يحتم هذه الطريقة؛ لأن الخروج عن الموضوع أمر كثير الحدوث.

٧ ـ إن الأفكار الصحيحة والمبادئ العامة المقبولة إذا اقترنت بغرور الإنسان سببت أضراراً مخيفة، فهو يحسب أنه يعمل لهذه الأفكار والمبادئ، ولكنه فى الواقع يعمل حسب مايوحى إليه غروره، فتكون عواقب أفكاره وأعماله وخيمة. ولا شىء أضيع من فكرة ناضجة فى ذهن غير ناضج؛ فإنها تكون مهما عظمت

وجلَّت عاقرًا أو تنتج غير المنظور منها، وكل فكرة عظيمة عند بدء ظهورها تكون لها سيطرة طاغية، ومن أجل ذلك قد تنقلب مزاياها كلها أو بعضها إلى نقائص، وهذا بسبب اندفاع النفس فى العمل لها من غير فطنة إلى الأفكار والحقائق الأخرى التى تحدها.

٨ ـ إذا أكثر إنسان من مجالسة غيره وأطال الحديث ولم يتملقه تصريحًا أو تعريضًا بأية وسيلة وعلى أى شكل كان التملق، حتى ولو كان مجاملة، ولم يشعره السرور فى نفسه بنفسه بأية واسطة فإن جليسه لايسر بمجالسته، وقد يظن به الظنون ويشعر بانحراف عنه، ومن أجل ذلك كانت المجاملة بالتملق من أهم أركان المجالسة والمعاشرة، ولابد أن تكون من الطرفين لامن ناحية واحدة من ناحيتيها. ومن حاول أن يستغنى عنها فى معاشرة الناس حتى الذين يذمون التملق وجد نفسه مكروها ومجالسه كريهة بغيضة.

٩ ـ إن الحياء والشجاعة صفتان لايمكن أن يحاكيهما إنسان إذا خلا منهما، ولكل منهما مظهر واحد لاكبعض الصفات التى تتخذ مظاهر وألوانًا متعددة. ومع ذلك فإن بعض الناس مخدوع بهما فيحسب الحياء جبنًا وذلة، ويعد الصفاقة والقحة شجاعة، ولولا كثرة المخدوعين فى هذه الصفات مازهد كثيرون فى الحياء ولاتنافسوا فى الصفاقة والقحة، فإن التقاتل على الحياة يدعو الإنسان إلى الفرار مما يعد ذلة كى لايستذله الناس. ويرغبه فيما يخال شجاعة كى يخيف به الناس، ولاشىء يغيظ الناس مثل وجدانهم الشجاعة عند ذوى الحياء إذا اعتدوا عليهم اعتمادًا على حلم حيائهم، وعلى عدهم الحياء ذلة، فلا يجدون ذلة ولا استكانة، بل إن بعض ذوى الحياء إذا لم يجد محيصًا عن ذلك يبذ ذوى السلاطة فى سلاطة لسانهم.

وقد فطن شعراء العرب إلى اقتران الحياء والشجاعة وعدوا ذلك الاقتران مثلا أعلى، كما قال الفرزدق:

يُغْضِى حياءً ويُغْضَى من مهابته فلا يكلَّم إلاَّ حين يبتسم

وقالت ليلى الأخيلية فيمن حياؤه يُخال سقما وهو فى الحرب زعيم:

ومخرق عنه القميص تخاله بين البيوت من الحياء سقيما
حتى إذا رُفعَ اللواء رأيته تحت اللواء على الجيوش زعيما

وفى رواية (على الخميس) وهو الجيش، ومثل هذا أو أكثر مبالغة قول متمم ابن نويرة فى رثاء أخيه، وكان المرْثىُّ سيِّدَ قبيلته.

فتىً كان أحْيا من فتاة حَيِيَّةٍ وأشجع من ليث إذا ما تدرَّعا

ومثله قول الآخر:

إذا قيلت العوراء أغضى كأنه ذليلٌ بلا ذل ولو شاء لانتقم

١٠ ـ الحقيقة هى أن أغلاط المرء وأخطاءه وعيوبه هى التى تحببه إلى الناس ماداموا واثقين أنها لاتضرهم؛ لأنه بها ينخفض إلى مستواهم ولا يرتفع عنه. أما لو كان معصومًا منزها من العيوب أنكره الناس أو حسدوه أو كرهوه. ومن أجل ذلك كثيرًا ما يلبسون الفضل ثوب العيب كى يكون حجة لكرهه، أو كثيرًا ما يضحون بأناس كى يثبتوا أنهم أنفسهم على غير الصفات البغيضة التى يدعون كرههم من أجلها، وهذا الإسراع إلى إثبات خلوهم منها يريب، إذ لولا وجودها فيهم ماتسرعوا بخلعها على غيرهم وكرههم بسببها، مع أن القاعدة السيكولوجية هى أن النفس ترتاح إذا عرفت أخطاء المرء أو عيوبه، حتى إنها من ارتياحها واطمئنانها تعطف عليه فى سريرتها، وتود لو شكرته؛ لأنه بعث إليها الاطمئنان بنفسها على عيوبها التى تعرفها فيها.

١١ ـ التملق دليل على أن المتملق لايشعر بمحبة أو مودة لمن يتملقه، فهو بالتملق يستعيض عنهما بدلاً كى يبلغ مايريد، ومع ذلك فإن الناس تعد كلامه دليلاً على المودة والمحبة والإنصاف؛ لأنهم لايرون فيما يمدحهم به باطلا، بل مدحه لهم حقيقة وإنصاف حتى ولو كانوا بجانب من عقولهم يشكون فى بعض قوله، ويكون أكبر همهم إذا تملقهم إنسان ليس البحث فى صدق قوله، بل التأكد

من أنه لايريد السخر بهم بذلك التملق. ولاسيما إذا غالى فى عبارات الملق فإن المغالاة فى التملق تكون أشبه بالسخر.

١٢ ـ ينبغى ألا نتعجب إذا تحولت الصفات الحميدة بالتدرج إلى شر مكروه، فإن معانى الصفات متصلة متدرجة فى النوع والمقدار، فقد تتحول الغبطة إلى حسد، والحسد إلى بغض، والبغض إلى حب الشر، وحب الشر إلى ارتكاب الآثام والجرائم، وقد يبدأ هذا التدرج بماهو أمر برىء ويصل إلى ماهو شر مكروه، وذلك إذا استسلم المرء إلى النزعات التى تحدث هذا التحول، ومن أجل أن صفات النفوس متدرجة قد لايفطن المرء إلا بعد سنين طوال أنه قد استرسل من الصراحة فى القول إلى الثقة بالنفس، ومن عظم الثقة بالنفس إلى الهوج فى العمل، فينزلق انزلاقاً بطيئًا لايشعر به من الأمر البرىء من العيوب إلى مايجمع الأضرار الكثيرة.

١٣ ـ فى طبيعة الإنسان عناد وتناقض، فإنه يأبى أن يُرْغَمَ على مافيه خيره وفائدته، ويرضى مختاراً أن يتقيد بمافيه ضرره. وهو إذا وجد نفسه راضيا مختاراً للتقييد أكسبته مظاهر حرية الرضا والاختيار اطمئناناً وتعاظمًا يلفتانه عن قيده وضرره، أما فى حالة الإرغام على مافيه خيره، فإن غضاضة الإرغام تحز فى نفسه وتؤلمه فتلفته عما فيه من الخير وتُزهِّدُهُ فيه، وهذان العناد والتناقض ظاهران فى حياة الأطفال، وقد يعجب منهما الرجال، ولو فحصوا عنهما فى حياتهم لوجدوهما فى نفوسهم أيضاً.

١٤ـ أنظر فى نفوس الناس ثم أنظر فى نفسى فلا أجد خطأ من أخطائهم كان من المحال أن أرتكبه. وادعاء العصمة والترفع عن الناس أمرٌ ميسورٌ لا يكلف صاحب الإدعاء مشقة، ولكن هذا الاعتراف من جوتا يتطلب شجاعة وعظمة نفسية لا تتفق لكل إنسان، وقد لام بعض الأدباء جوتا على اعترافه فى كتابه الذى يترجم فيه حياته والمسمى بين الحقيقة والخيال إذ قال: إنه كان فى عهد صغره يحلم يقظانَ فى أحلام العظمة أن أمه حملت به سفاحًا من أمير جليل الشأن، وأن أباه إذاً ليس الرجل الذى ينتسب إليه. وقد زكى هذه الشجاعة الكاتب الإنجليزى سمرست موام فى كتاب الخلاصة. على أنه عاد بعد اعترافه الأول

فقال: وكل ما حاولت علمه أو عمله وكان بسبب نزعات باطلة قد حاولت أيضًا أن أفهمه، وأن أتعلم منه، وأن أدرس الدواعى إليه وأن أزيلها إذا استطعت.

١٥ ـ إذا تأمل الإنسان جثمانه ظاهرًا وباطنًا فى الأوقات المختلفة لايعدم أن يجد وعكة أو نقصًا أو مرضًا أو ضعفًا، وكذلك إذا تأمل نفسه فى حالاتها المختلفة. ومن أجل ذلك تدفع النفس نفسها دفعًا عن التأمل فى صفاتها التى تكرهها أو تلبسها لدى نفسها لباس صفات أخرى، أو تتخذ لها حججاً وأعذارًا تزكيها. فقلما تفكر النفس فى صفاتها بصدق وجد وإمعان وإنعام.

١٦ ـ قيل إن العمل ناشئ من الإرادة، وقيل إنه ناشئ من العرفان، ولكن الإنسان لايستطيع أن يعمل إذا أراد إلاَّ إذا كان يعرف مايريد علمه. ومن أجل ذلك لا أرى فى الحياة أمرًا مخيفًا مثل أمر الرجل الذى يعمل وهو لايعرف ما يعمل.

١٧ ـ إذا أرضينا غيرنا عَزَّانا ذلك عن عدم إرضائنا لأنفسنا عند محاسبتها فى القول والفكر والعمل، فتسر نفوسنا وتنتعش وتنشط ـ ويكون نشاطها إذا أرضينا غيرنا بالحق، ولكن من الأسف أن هذا قد يصدق أيضًا إذا أرضينا غيرنا بغير الحق وبعمل الباطل؛ لأن ما نلاقيه من العطف والحث يغريها به.

١٨ ـ فى هذه الدنيا كثيرًا ما يقيس الناس الرجل بالمقياس الذى يقيس به نفسه، على شرط أن يحدد قيمته ويلتزمها، لأنه يسهل على الناس بالقياس أن يعاشروا رجلاً اعترفوا له بقيمة معينة وإن كانوا يكرهون عاداته. ويشق عليهم أن يعاشروا رجلاً لم يحدد قيمته ومنزلته، وجهلهم بها يضايقهم ويبعثهم إلى الشك فتساورهم به الظنون.

١٩ ـ ليس الغُنْم فى التفكير فى عيوب الأصدقاء، ونقائص من نعرف، لأن التفكير فيها يؤدى إلى الاقتناع بحالتنا النفسية على مابها من نقص، ويؤدى بنا إلى الغرور، أما التَّأمُّل فى فضل الخصوم فهو الغنم؛ لأنه يؤدى بنا إلى محاولة التشبه بفضلهم وبفضائلهم.

٢٠ ـ لابدَّ من أن تكتسب النفس من ضبط النفس بقدر ما تنال من الحرية؛

لأن كل أمر يحرر نفسه المرء من غير أن يعطيها قدرة على حُكْمْ نفسها يضرها ويدعوها إما إلى الإفراط وإما إلى التفريط.

٢١ ـ أكثر شرور الحياة ناشئة إما من عجزنا عن أن نضع أنفسنا موضع غيرنا، وإما من عجزنا أن نضع غيرنا موضع نفوسنا، والوضع الأول لو أمكن يزيل الحقد والحسد وسوء الظن، والثانى يزيل الغرور والأثرة والكبر وقلة مبالاة ما يعانيه الناس.

٢٢ ـ إن التجاذب ليست له قاعدة واحدة فبعض الناس يحب من يشابهه، وبعضهم يميل إلى من يخالفه؛ ومن أجل ذلك نرى تجاذب الأشباه ـ وربما كان هذا أكثر ـ كما نرى تجاذب الأضداد. وقد يوجد تجاذب الأضداد بالرغم من تنافر وتخالف وتخاصم.

٢٣ ـ كثيراً ما يظن المرء إذا استطاع أن يعمل عملاً مرة واحدة أنه يستطيع أن يعمله مراراً، فتظهر خيبته وعجزه إذا حاول ذلك إلاَّ إذا فقهه وتمرَّس به، ولم تتغير نفسه ومقدرته. وأعجب من ذلك أن الإنسان قد يظن أنه يستطيع أن يعمل مالم يعمله قط إذا رأى غيره يعمله، مع أنه لم يجرب قدرته، ولم يكتسب مرانًا عليه.

٢٤ ـ ليس بين الناس من لايحسد صاحب المواهب العقلية إلاَّ الأب، فإن الأب لا يحسد ابنه؛ لأنه كان سبب حياته، وربما أقنع نفسه أن ابنه استمدَّ مواهبه منه. وقد علل شوبنهور هذا الحسد بأن المرء قد يأمل أن يوفق وأن تساعده الحظوظ فيكسب مثل بعض مال ذوى المال. أما ملكات العقل واستعداده فأمور طبيعية، ومن لم تكن عنده لايطمع فى حيازتها. ومن أجل ذلك كان الفكر مع الفقر محسوداً أكثر من الغباوة مع المال، هذا عدا أن صاحب المال يطمع الناس فى نيل معونته ويصول بما يهيئه له ماله من النفوذ فيختفى حسد ذوى الحسد، بينما يكون صاحب الفكر معرضًا لسوء الطن بفكره ونتائجه وليس عنده مطمع لذوى الحسد ولا عنده سلطان المال.

٢٥ ـ بالرغم من أن شدة تعلق المرء بآماله تجعله يتوقعها حتى يصير فى توقعه كأنها قد حدثت، فإن حدوثها بالرغم من ذلك يكون مصحوبًا بشىء ولو قليل من الدهشة والمباغتة. وذلك من الشك الذى يلازم هذا التوقع مهما كان موثوقًا به، ولعل أثر رد الفعل فى الإحساس يظهر أيضًا هذا الشك الذى يسبب الدهشة، فإن كل إحساس شديد لابد أن يكون له رد فعل كى تستقر الأمور، إذ أنه يعرف أنه كان يغالط نفسه فى إنزال أمله منزلة الحقائق.

٢٦ ـ إن مجالسة النساء تكسب الرجال آداب السلوك؛ لأنهم يتخلقون بما يناسب مجالسهن فيكتسبون رقة وحياء وآدابًا، ويترفعون عن سعار المهاترة ورفث القول، ولكن فى البيئات التى يكون الرجال فيها قدوة للنساء، ولا يتورعون فيها من الاسترسال على طباع الخشونة والمجون إذا جالسوا النساء، تتخلق النساء بهذه الطباع وأشباهها من الطباع التى سماها فلوبير «كانيرى» أى الطباع الكلبية بدل أن يكسبن الرجال من آدابهن وحيائهنَّ.

٢٧ ـ غفلة بعض الناس عن الحق قد تكون كالنور الذى يجدد نشاطهم فإذا استيقظوا ونُبِّهُوا إلى خطأ شعروا بنشاط مجدد فى طلب الحق والصواب، ولكن غيرهم إذا لُفِتُوا إلى خطأ تتخاذل قوى أنفسهم ويظهرون الاستخذاء والاسترخاء، والطائفة الأولى هى طائفة الفائزين.

٢٨ ـ قلما يهم المرء انتصار الحق إلاَّ إذا كان انتصاره يُزَكِّى فكره وقوله. أما إذا كان لايزكى فكره وقوله لم يهتم له ولجأ إلى الباطل يتخذ منه حجة، ولايهمه بعد ذلك لو مات الحق؛ لأن عنده أن الحق مايرى ويقول أو يغالط نفسه وهو يعرف كذب ذلك.

٢٩ ـ إن الخلق القوى فى إنسان قد يَسْتَنْبِط الخلق القوى فى غيره. وهذه النظرة تذكرنا قول جورج اليوت: إن من لاثقة له بنفسه قد يأنس إلى من له ثقة كبيرة بها، كما يأنس الذى أصابه البرد إلى من أصابه الحر كى يفيد حرارة، والخلق له عدوى وإيحاء، ألا ترى أن الجندى يكتسب قدرة على تحمل الآلام

وشجاعة برؤية قدرة وشجاعة غيره من الجنود فى الحروب. وكذلك عدوى الخلق فى الحياة اليومية.

٣٠ ـ يؤلمنى أشد الألم أن أرى الإنسان الذى جُعل تاج الخليقة ورأسها وذروتها كى يُحرِّر نفسه وغيره من حكم الضرورة القاسية بالفكر والعمل ـ يفعل ضد ذلك بسبب الانحياز للباطل المُحَبَّب إلى النفس، فينغمر فى حكم تلك الضرورة القاسية ويغمر غيره فى حكمها؛ ومن أجل ذلك نرى حياة الإنسان تتقدم بلا تقدم عصراً بعد عصر وترتقى من غير ارتقاء.

٣١ ـ إذا سمع الناس إنسانًا يمدح نفسه قالوا إن مدح النفس له رائحة كريهة. ولكن الظاهر أن أنوفهم لاتشعر بالرائحة الكريهة التى فى ذمهم غيرهم، وهو مدح معكوس لأنفسهم.

٣٢ ـ مما يؤدى إلى حيرة الإنسان أنه إذا طلب أمرًا واتخذ له وسيلة يركب الشطط فى طلب الوسيلة ويغالى بها حتى يهمل الغاية وينساها فى طلب الوسيلة فيحيد عما يريد، لأن الوسيلة متى صارت غاية فى نفسها قد يتخذ لها هى أيضاً وسائل مستقلة عن غايتها الأولى وقد تمنعه من بلوغ تلك الغاية الأولى، وكذلك من يضع الغاية موضع الوسيلة.

٣٣ ـ إننا أسرع إلى الاعتراف بأخطاء عملنا وأبطأ فى الاعتراف بأخطاء فكرنا؛ لأن أخطاء العمل لها عواقب ظاهرة بارزة من الصعب إنكارها، أما أخطاء الفكر فقد تخفى أو تستطاع المغالطة فيها، ومع ذلك فمن الناس من يمارى فى أخطاء عمله، وهى ماثلة أمامه، إذ ينسب تلك الأخطاء إلى غيره، أو إلى سبب آخر غير سببها.

٣٤ ـ إن الإنسان مولع بأن يربط كل شىء بحياته وحاجاته. فصاحب الطاحون يشعر أن القمح إنما نبت ونما كى يعطى له عملاً بطحنه، وكى تظل طاحونه دائرة، وقس على ذلك كل أمور الحياة.

٣٥ ـ إن الإنسان مشغوف بمعرفة المستقبل، وهذا الشغف سببه أنه يميل إلى تصديق حدوث مايود أن يحدث فيه، وهذه صفة يعرفها الدجالون، ويبنون عليها أقوالهم عند ادعائهم كشف المستقبل.

٣٦ ـ فى جميع العصور كانت الآحاد من الناس هى التى تعمل على تقدم العرفان، أما الجماعات والحكومات فإنها تتنازعها عوامل ودوافع مختلفة قد تؤدى بها إلى تقييد العلم حتى فى أثناء نشره (وفى كتاب أسباب تقاوت الناس للأستاذ هالدين فصل ممتع فى هذا الموضوع). وعلى أى حال فالحكومات والجماعات تعنى بجامعى العلم والحُفَّاظ وأهل المرونة أكثر من عنايتها بذوى الفكر المستقل.

٣٧ ـ بعض الناس الذين تعبر حياتهم عن مبدأ أو فكرة قد لايستطيعون فهم ما تعبر عنه حياتهم فيركبون الشطط، وينزلقون إلى الخطأ والغلط. وقد كان نابليون يحتقر الأفكار قائلاً: إنها نظريات قليلة الأثر، مع أنه كان يعترف (بالعمل إن لم يكن بالقول) أن الحياة الفكرية تبعث الحياة، والفكر يبعث العمل.

٣٨ـ عندما يعمل إنسان لابد له من أن يرى أن نفسه أعظم من حقيقتها كى يستطيع أداء عمله. وهذا أمرٌ مغتفر بسبب ضرورة العمل، إلاَّ إذا كان رأيه هذا فى الثقة بنفسه يضر غيره أو يؤلمه أو يقلقه.

٣٩ـ إذا عمل الإنسان لخير غيره ونفعه فإنما يعمل كى يشاركه من يعمل لخيره فى السرور بذلك العمل، ومن لايستطيع السرور بالعمل لغيره يُضرُّ ويؤذَى بذلك العمل. والظاهر إن فى هذا القول ما يخالف قول كانت: (إن المرء لايستطيع أن يحكم أن الواجب هو دافعه إلى العمل إلاَّ إذا كان العمل يخالف نزعاته السارة وميوله المبتهجة)، ولو أن قول كانت حكمٌ بصعوبة معرفة الدافع إذا وافق العمل نزعاته السارة.

* * *

تكملة نظرات جوتا[1]

- ١٧ -

يحتفى الأدباء هذه السنة بإحياء ذكرى (جوتا الألمانى) ولقد عادت ألمانيا مجزأة كما كانت فى عهده وكان (جوتا) ينكر الحروب وقسوتها ويندد بفظائعها التى سماها فظائع الأبالسة. وكان فى صباه قد اشترك فى الحملة على الثورة الفرنسية التى تمخضت عن الجمهورية الفرنسية الأولى، وكان (جوتا) يرغب فى السلم العالمى الذى ينشده العالم الآن، كما كان راغبًا فى ثقافة عالمية كما يرغب اليونسكو. ولهذه الأسباب كان هذا الوقت أنسب الأوقات للاحتفاء بذكراه. ولم يكن (جوتا) من طبقة الأشراف، بل أسبغ عليه صديقه أمير ويمار لقب الشرف وقد ذكرنا فى المقال السابق أنه فى شبابه ألَّف قصة (أحزان ورتر) التى اشتهرت فى عهدها كاشتهار قصة (كلاريسا هارلو) لرتشاردسون الإنجليزى و (هلواز الجديدة) لروسو، وكانت على طريقة (السنتيمنتاليزم) ولقوة أثرها فى النفوس حاول بعض الشبان التشبه (ببطل) القصة؛ ومن أجل ذلك لم يكن أثرها حميدًا، اتسع نطاق فكر (جوتا) ونطاق نفسه بعدها، وبالرغم من أن مواقفه الغرامية كانت بها عاطفة غرامية صحيحة، فإنها كانت ممزوجة بالرغبة فى التجربة والخبرة صنع العالم المجرب. وكانت تتنازع نفس (جوتا) العاطفة والرغبة فى الخبرة، وهذا التنازع كان فى كل الأمور، ومن أجل ذلك كان أديبًا وكان عالـمًا. وقد ذكرنا أنه كان يميل إلى المذهب الكلاسيكى وصفاته من سلاسة وسهولة ووضوح كما فى قصته (هرمان ودوروثيا)، كما كان يميل أحياناً إلى الشعر الفلسفى، أو إلى الخيال الرمزى، كما فى بعض أجزاء القسم الثانى من (فوست)

(١) المقتطف : نوفمبر سنة ١٩٤٩.

المسمى (هيلينا) والحقيقة أنه كان يشعر بلذة فنية فى تجربة كل نوع من الثقافة والأدب، فقد قرأ مرة قصيدة تأبط شرا التى مطلعها:

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلاً دمه ما يُطَلُّ

وكانت قد ترجمت إلى اللاتينية فترجمها (جوتا) إلى الألمانية لإعجابه بها. وهذا كما ورد فى كتب (تاريخ العرب الأدبى) للعلامة نيكلسون الإنجليزى. و(لجوتا) ديوان سماه (ديوان الغرب والشرق) يحاكى فيه بعض الشعر الشرقى، وسمع مرة أن الإسلام هو الاستسلام لإرادة الله فى كل شىء، فقال هذا ما ينبغى أن يكون عليه كل إنسان. وألَّف حكمة فى هذا الموضوع. وقصص (شيلر) التمثيلية على العموم أوقع. إذا قارنا بين قصص (جوتا) أمثال (اجمونت) و (تاسو) و (جوتز) و (افيجنيا)، وبين قصص (شيلر) أمثال (وليام تل) و (مارى ستوارت) و (والنستين) و (دون كارلوس) و (اللصوص).

وقد ترجم (كارليل) قصة (جوتا) النثرية المسماة (ولهلم مايستر) إلى الإنجليزية، ولكنه عاد يتململ ويتأفف من بعض حوادثها، والواقع أن هم (جوتا) وغرضه هو أن يعرض كيف اكتسب بطل القصة ثقافة حتى من الحوادث والمخالطة الوضعية، ولم يقصد بالثقافة الزهد، فقد كان (جوتا) زاهدًا فى الزهد، بل كان يراه مؤديًا إلى ضيق النفس والفكر، وإنما كان يعنى بالثقافة استخلاص الحكمة الصائبة من تجارب الحياة.

وكانت روح (جوتا) روحًا عالمية تخطت حدود وطنه واحتضنت العالم، حتى إنه أبى أن يكره الفرنسيين فى عهد نابليون عندما غزوا ألمانيا. وقال لاكرمان كيف أكره أمة أنا مدين لها بجزء كبير من ثقافتى، والثقافة هى كل شىء وقال (أوسكار وايلد) فى رسالة (الناقد صاحب الفن): كان جوتا أول من جرؤ وجاهر بهذه الفكرة العالمية، وسيزداد أثرها فى العالم حتى تؤدى إلى ترجيح العالمية، ويمحو النقد الفرق الخاصة، ويقرب توحيد العقل البشرى على اختلاف أمكنته، وقد نقده بعض الأدباء نقدًا شديدًا كما فعل مينزل، وبعضهم كان نقده يخالطه الاعجاب به مثل نقد هينى الشاعر الألمانى.

وفيما يلى تكملة لما اختير من كلماته ونظراته مع بعض التعليق:-

١ - كل إنسان له أخطاءٌ وصفاتُ نقص أو عيوب لولاها ما وُجِدَتْ شخصيته وفرديته التى يمتاز بها، ومن أجل ذلك نأنس فى بعض الأحايين إلى أخطاء وعيوب أصدقائنا القدَماء، إذ لولاها محيت شخصيتهم وصاروا أناسًا آخرين. فإذا تخلص أصدقاؤنا منها مرة وافتقدناها فيهم أنكرناهم، وقد نشعر بقلق إذْ نشعر بغير المألوف منهم. والواقع إن هذا ليس فى الأصدقاء فحسب، فإن الحياة كلها مثل حجرة عُلقَت صور على جدرانها، فإذا أزيلت بعضها من مكانها ربما أحسسنا بقلق هو شبيه بقلق التشاؤم بالأمر غير المألوف، وكأن إزالتها من مكانها نذير بالموت والفناء.

٢ - إن الإنسان قلما يستطيع أن يدرك مقدار إساءة الناس فهم قول غيرهم، لأن كلامهم يمر خلال إحساساتهم وخوالج نفوسهم، ولو استطاع الإنسان أن يدرك مقدار إساءة الناس فهم قول غيرهم وتأويله حسب أهوائهم، لتجنب كثرة الكلام، كى يَسْلم عن عنت أو خطب.

٣ - إن الرجل المعجب بنفسه يظهر إعجابه بنفسه بوسائل كثيرة، وإذا منع من بعضها استحدث أخرى، فهو يظهره بضحكه أو ابتسامه أو سخره أو غير ذلك من الوسائل المتنوعة، ومهما كان الأمر الذى حرَّكه إلى الضحك أو الابتسام بعيدًا عن موضوع إعجابه بنفسه، فإنه يُظْهر فى ضحكه أو ابتسامه أنه مسرور بنفسه راض عنها، معجب بها، والرجل الذَّكىُّ قد يرى أمورًا كثيرة فى الحياة تستحق الضحك والسخر، ولكن الحكيم إذا تدبر مآسى الحياة ومشاقها وآلامها وعجز الإنسان فيها مهما كان قادرًا إذا تدبر كل هذه الأمور، منع نفسه من السخر بقدر ما يستطيع منع نفسه.

٤ - مما يدلُّ على عجز الناس أن كثيرًا منهم إذا واجههم الناس بعيوبهم يتحملون العقاب على تلك العيوب، ولكن إذا حاول محاول أن يرغمهم على مزايلتها ومباعدتها ضاقت صدورهم، فهم يفضلون أن يُعاقَبُوا، وأن يظلوا عليها

إذا لم يستطيعوا دفع الوصف بها أو دفع العقاب، وهذا يظهر فى حياة الصغار كما يظهر فى حياة الكبار.

٥ ـ من الغريب أنك تجد فى بعض الأحايين شبَّانًا يتفق أنك لاتكاد ترى فيهم موضع نقص يصلحهم، ولكن اندفاعهم مع دافع الشباب إلى مجاراة تيار الناس يجعلهم كالسفينة التى تتقاذفها الأمواج، فهذا الدافع هو أخوف ما يخاف عليهم، ولاسيما أن الشباب مندفع بطبعه، وأنه بالرغم من مظاهر ثقته بنفسه كثيرًا ما يخفى تحتها قلة الثقة ببصيرته التى لم تكتسب بعد من تجارب الحياة، فينقاد لتيار الناس ولعدوى خصالهم وأعمالهم بسبب ذلك.

٦ ـ من الناس من لا تتفق طباعه وأية بيئة أو مكانة، ومن أجل ذلك ينشأ ذلك الصراع المخيف فى النفس الذى يضيع الحياة سدًى، ويقضى على مسرَّاتها، ولا يقتضى اتفاق المرء والبيئة أن ينقاد ذلك الانقياد الجارف الذى حُذِّر منه فى النظرة السابقة.

٧ ـ ليس من السهل أن نصيب العدل فى قَدْرِ فضل الساعة التى نحن فيها، فإذا كانت خيرًا أوجبت فرضًا، وإذا كانت شرا حملتنا ثقلاً وهما، وإذا كانت لاخيراً ولا شرا كانت مللاً وسأمًا، والنفس تميل إلى دفع كل هذه الأمور عنها وإبعادها حبا للراحة، وخلاصًا من المشقة فى الحالات الثلاثة إلاَّ من شذَّ فى النفوس غير المسوقة بمبدأ أو وهم أو إيمان أو إحساس شديد.

٨ ـ إن الحق والباطل ينبعان من منبع واحد فى النفس، وكثيراً ما يكونان متصلين فيها اتصالاً قليلاً أو كثيرًا. ومن أجل ذلك ينبغى الحذر إذا أردنا محو الباطل من محو الحق معه.

٩ ـ مما يدعو إلى الأسى أن الناس يزهدون فى الحق لا لأمرٍ إلاَّ لأنه معروف مملول مألوف، والألفة تبعث الملل، وهم لايفطنون إلى أنه بالرغم من أنه معروف، لايستطيعون تطبيقه فى الحياة وإنجاحه وتحقيقه، فهو يشق عليهم فى العمل وإن كان لايشق بعضه فى الفكر ـ ولعلَّ هذا أيضًا من بواعث الزهد فيه مادام يصعب ويكلف النفس ألـمًا ومشقَّة.

١٠ ـ إذا بدأ الإنسان يعمل قيد ضميره بالعمل وضروراته، أما إذا تريث وجعل يفكر فإنه يعطى لضميره فرصة لاستعادة حريته ـ هذا إلاَّ إذا كان التفكير فى تهيئة الأعذار التى تسوغ عمله، فمثل هذا التفكير لايعطى ضميره حريته.

١١ ـ إذا أصغيت إلى إنسان، فإنه قد يكون مخطئًا مخدوعًا، وإذا أصغيت إلى أناس كثيرين، فإنهم كذلك قد يكونون مخطئين مخدوعين. ومع ذلك فإن كثرتهم قد توهمك أنك أصبت الصواب فى قولهم، وأكثر الناس يحكمون بضغط حكم من حولهم من الناس من غير فحص وتقدير لذلك الحكم، بل إنه مهما حاول الإنسان التخلص من أثر قول من حوله وحكمهم يجد مشقة أو استحالة.

١٢ ـ إذا استحسن الناس مبدأ أو رأيًا فى الحياة واعتنقوه لاتلبث محاسنه مع مضى الزمن أن تزول. وتظهر وتعظم أضراره ومفاسده من سوء الأخذ به، فإذا استفحل ذلك حاول الناس القضاء عليه، ولكن عندما يقضون عليه يقضون على النظام الذى لاتستقيم حياتهم إلاَّ به، فتعم الفوضى حتى يضطروا إلى إعادة النظام على أساس جديد أو على الأساس القديم ممزوجًا بقليل من التجميل والتحسين. وعلى ذلك فالجهد الذى يبذل فى سبيل التغير والإصلاح، أكثر من التغير والإصلاح إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر لا إلى المسميات.

١٣ ـ معرفة الخطأ أسهل من الوصول إلى الصواب، فليس كل معرفة للخطأ تؤدى إلى الصواب، فإن الخطأ يوجد على سطح الأمور، أما الصواب المجهول فلا يستطيع كل إنسان البحث عنه. ومع ذلك فإنه بعد تعذُّر معرفته إذا عرفه الإنسان كانت له فجأة الأمر المتوقع، وبغتة الأمر المعروف المنسى، مع أنه لم يكن معروفاً ولا منسيا.

١٤ ـ إن محاولتنا أن نضع أنفسنا موضع الرجل الذى يخدع نفسه بأنْصاف الحقائق وأجزائها، أشقُّ على العقل والنفس من فهم الرجل الذى كل فكره خطأ.

١٥ ـ إذا كان الفكر والمشاهدة مصحوبين بالرغبة فى اعتقاد السوء، صرفتهما تلك الرغبة عن تَبَيُّن أعماق الحياة فلا يصلان إلاَّ إلى سطح الأمور. وهو أمر

صحيح فى العلم، كما هو صحيح فى الأدب، فما استطاع الشاعر العالمى (شكسبير) مثلاً أن يفصح عن حقائق نفوس من يصف من الناس حتى حقائق صفات الأشرار منهم، الاَّ بأن يضع نفسه مكانهم كى ينظر إليهم بالعطف، فيستطيع أن يستخلص حقائق نفوسهم، وهو قلما يشذ فى ذلك إلاَّ فى قصصه الأقل جودة.

١٦ ـ إننا نستطيع أن نُغْفِل مناقضة لنا من غيرنا، أما إذا أتت المناقضة لنا من أنفسنا وألحَّت، كان كل ما نستطيع عمله أن نصحح تلك المناقضة أو أن نصحح نفوسنا، ولما كان تصحيح ميل النفوس أمرًا عسيرًا، فإن النفس تحتاط حتى لاتتقحَّم عليها مناقضة لها من نفسها، وللنفس وسائل عديدة فى هذه الاحتياط.

١٧ ـ ربما أصابت المصائب العامة أو الخاصة إنسانًا قويا، فلايكون وقعها أشد ولا أثرها أعظم من وقع المدْراة وأثرها فى أعواد حبات الحنطة، فإنها تنزع الحبات، ولكن تلك الحبات لايهمها أتعود فتزرع كى تستبعث محصولاً جديداً أم تؤخذ فتطحن فتصير غذاءً وقوامًا. وكذلك ما تستبعثه المصائب من الرجل القوى العاقل الرشيد من الأعمال والأقوال تكون دائمًا صلاحًا لنفسه، يستدرك به فارط أمره أو صلاحًا للناس. وبعكس ذلك ما تستبعثه من الرجل الأخرق أو الضعيف، وهذا مثل أعلى قلما يصيبه إنسان، ولكنه إذا كان دائمًا نصب عينيه، ربما أصاب بعصه إذا كانت نفسه مؤاتية له.

١٨ ـ إننا نرتاح للأمور الوسطى، ونقبل على من كانت ملكاته فى حدودها؛ لأننا نأنس بمخالطة من هو أقرب إلينا منزلة وشبهًا، وبمعاشرة من يشاكلنا ولا يكلفنا مشقة الارتفاع فوق الأمور الوسطى. وهذا من أسباب رواج شأن أصحابها.

١٩ ـ إن الكفاح بين القديم الموجود، وبين الإصلاح والتجديد، كفاح دائب أبداً. وكل نظام إذا اعتوره الفساد دَفَعَ قهرًا إلى ضده. وهذا مشاهد فى الأدب كما هو مشاهد فى الحياة عامة، مثل النزاع بين أصحاب نظرية امتلاك الضياع الكبيرة، وأنصار نظرية تأميم الأرض، أو الكفاح بين أنصار نظرية حرية التجارة

وأنصار حماية المنتجات المحلية. وهذا الكفاح على تعدد مظاهره كفاح معروف من قديم الزمن.

٢٠ ـ الحرية المطلقة أمرٌ غير مرغوب فيه، فلاعيش ولا صلاح للناس معها؛ لأن الناس إذا تحرروا من كل القيود تحرروا أيضًا مما يمنعهم من الخطأ، ومما يردعهم عن الشرور ـ وهم إذا طلبوا الحرية المطلقة، إنما يطلبون نظامًا جديدًا وقيودًا جديدة ولا يعرفون خطر طلب الحرية المطلقة إلا بعد أن يُكوَوْا بنارها، ويَصْطَلوا الويل منها، وبعد أن يمعنوا فى الأخطاء الناشئة من الإفراط أو التفريط.

٢١ ـ السعيد هو الذى يعمل ليخلو من هم الحياة وقلقها. فإذا لم يُؤدِّ العمل لجمع المال إلى الهم والقلق كان من عمل السعيد. أما إذا أدَّى إلى الهم والقلق لم يكن العمل لجمع المال طريق السعادة، بل طريق الشقاء، فليست الثروة أن تكون ذا مال كثير، بل الثروة أن تخلو نفسك من توقع الحاجة، ومن خشية الفقر، فمن استطاع أن يخلى نفسه من هذه الخشية لم يكن فقيرًا وإذا لم يستطع كان فقيرًا.

٢٢ ـ كل عمل يراه الرجل الضيق الذهن حرفة أو صنعة أو مهنة، يراه الرجل العظيم فنا جميلاً، فمهما كان خادمًا لحرفته أو صنعته ملتزمًا لها، فهو خادم لفن جميل ومثل هذه الخدمة واجبة على كل إنسان، سواءٌ أكان كبيرًا أم كان صغيرًا فى مقامه ومرتبته. وإذا عمل الإنسان عملاً واحدًا بصدقٍ وإتقان، كان عمله مرآة يرى فيها صورة كل مايمكن عمله بصدق وإتقان.

٢٣ ـ لكل إنسان عمل يشبه طبعه وطريقته، فإذا حاول الإنسان أن يعمل ماليس فى طبعه ونفسه أخَلَّ ولم يُحسن، ولا ينبغى أن يُطْلَبَ من الرجل عمل مالا يشبه طبعه ونفسه، لقد طلب منى أُناس أن أَنظم قصائد إثارة البغض، فكيف أصنع ذلك وليس البغض من طبعى.

٢٤ ـ لاشىء يدعو إلى التزام جادَّة الفهم المشترك فيه بين الناس مثل العيش كما يعيش الناس، والتزام ما يلتزمونه، ولا شىء أدعى إلى مايشبه الجنون من الشذوذ عن الحياة العامة التى يحياها الناس، ومن الخروج على فروضها ونظمها.

٢٥ ـ التجارب والخبرة لاحدَّ لها، أما النظريات فإنها محدودة بحدود العقل؛ ومن أجل ذلك كثيرًا ما يعود الناس إلى نظرية بعد نبذها وتركها إذا ازدادوا خبرةً وتجاربَ.

٢٦ ـ إن أغلاط المرء فى الحياة قد تكلفه عناءً كثيرًا، وتوقع به ضررًا بالغًا، ومع ذلك لايستطيع أن يثق أنها استنفدت كل عواقبها، فإنها قد تكون لها عواقب قصيَّات تطارده بعد أن يظن أنه قد عوقب عليها عقابًا كافيًا ـ ومع ذلك فالشبان خاصة يندفعون إلى أمثال تلك الأغلاط، ولا يعرفون ماهو مخبأ لهم، كما قد لايعرف ذلك الكبار.

٢٧ ـ فى الفكر كما فى العمل ينبغى معرفة حدود ما يستطاع الوصول إليه كى لاتضيع جهود المرء سدًى، ومع ذلك ينبغى أن يثابر المرء على اعتقاد إمكان فهم المجهود الذى لايستطيع فهمه، وإلاَّ قَصَّرَ فى أمور كثيرة فى بحثه، وكان من الجائز أن يصل بذلك البحث إلى كشوف كثيرة ما كان يتوقعها.

٢٨ ـ إنك إذا أردت من إنسان أداء واجبات ومنعت عنه مزايا يستحقها لأدائها، فاعلم أنك ستدفع ثمنًا غاليًا لهذه الخطة، ولا تحسبنَّ أنك اقتصدت، والناس إذا أرادوا الغبن قالوا: لاشكر على واجب.

٢٩ ـ إن الذين عاشروا الأطفال يعرفون أنه إذا زاد التأثير عليهم عن حدّ معين لايخفق هذا التأثير فى إحداث رد فعل يؤدى إلى مخالفة وعناء. ومن أجل ذلك كانت حياة الصغار مملوءَة بالتسرع فى الحكم على الأمور بأحكام غير ناصجة، ولابدَّ أن يمضى زمن حتى يستطيع المدرس أن يصحح أثر هذا التسرع وهذا العناء ـ والمدرس الفَطِن هو الذى يستطيع أن يعرف حد السيطرة الذى يؤدى بعده التأثير إلى المخالفة والعناد. ويعجبنى خطة بعض المدارس الإنجليزية التى تكل أكثر أمور التلاميذ إلى التلاميذ أنفسهم، حتى خصوماتهم وحتى حفظ النظام، فينشأ التلميذ وهو يشعر بالمسئولية، كما أنه لايُحسُّ تلك السيطرة القاهرة التى تؤدى إلى العناد.

٣٠ ـ إذا أراد الإنسان أن يركن إلى خبرة غيره، ينبغى أن يتذكر أن ذلك الأمر المُخْتَبَر قد أصبح بينه وبينه حاجزان: حاجز نفسه وحواسه، وحاجز نفس من يركن إلى اختباره، وقد تتغير الحقائق من إحدى الناحيتين.

٣١ ـ إذا فقد الإنسان الفهم الأساسى العام ظنَّ أن كل ما يشتهيه أمر ضرورى، وأن كل ما يسره أمرٌ نافع، فيقيس الأمور بمقياس باطل.

٣٢ ـ لايستطيع الإنسان أن يعيش من غير سلطة مسيطرة على حياته، ومع ذلك فإن هذه السلطة فيها من الخطأ قدر ما فيها من الصواب والحق. فإنها تحافظ على أمور كثيرة ينبغى أن تزول، وتسمح بزوال أمور كثيرة ينبغى أن تصان، فهى سبب عدم تقدم الإنسان.

٣٣ ـ بعض الناس يكونون على جانب كبير من النبل والشرف والصدق لولا أنهم ذكروا مرة أمرًا مكذوبًا أو باطلاً، ثم أرادوا أن يسوغوا أنفسهم ويعذروها بأن يعيدوا ذكره مرارًا كى يصدقه الناس فتتدَلَّى بهم هذه الغريزة بدل أن تزكيهم وترفع من شأنهم.

٣٤ ـ لايمتاز الإنسان بالفضل على خصومه، إذا لم يستطع بالفضل معرفة فضلهم، والإنسان لايستطيع أن يشغل نفسه بكل إنسان، ولا أن يعيش مع كل إنسان، فينبغى إذاً أن يعزّ أصدقاءه، وألا يكره وألا يضطهد أعداءه، أو من وضعهم موضع الخصوم.

٣٥ ـ قبل الثورة كان كل أمر مجهودًا يُطلب من الناس أداؤه، وبعدها عاد كل أمر مطلبًا للناس يطلبونه، وهذا يذكرنى نقد (مازينى) للثورة الفرنسية إذْ قال: إنها جعلت الناس تنظر إلى حقوقهم، وإلى طلب تلك الحقوق، وصرفت الناس عن واجباتهم ـ وربما كان فى هذا القول مبالغة، إلاَّ إذا أريد أن يكون تقديم الواجبات مبدأ عاما.

٣٦ ـ المخدوع بقول غيره أو علمهم إنما كان مخدوعًا، لأن فى نفسه صفات مكَّنت المخادع منه، فالمخدوع إذًا هو الذى خدع نفسه بسبب ذلك.

٣٧ ـ الحصاد أشق من نثر البذر فى الزراعة، وكذلك فى الحياة تزداد المشاق كلما قارب الإنسان مقصده الذى يسعى إليه، وكذلك فى الفنون كلما ألم بها الإنسان وتفقَّه فيها، عرف صعوباتها. وأما المبتدئ فيها غير الممارس لها، فهو أكثر اغتراراً بها وبالقدرة على التبريز فيها.

٣٨ ـ السعادة هى الاستسلام لإرادة الله، فَنَتَقَبَّل كل ما يصيبنا كأنه ناشئ من إرادتنا.

٣٩ ـ مهما حَرَّرَ الفن النفوس، فإن أساسه عقيدة وإيمان، ومهما خالطه من الفكاهة فإن أساسه الجد.

* * *

obeikandl.com

تتمة نظرات جوتا[1]

-١٨-

تنقسم حياة جوهان ولفجانج فون جوتا إلى عهود: أولاً عهد العاصفة والشدة وهو عهد الاندفاع مع العاطفة والاستسلام للخيال، وفيه ألَّف (جوتا) و(ورتر). ولو أنه لم يكن مستسلمًا كل الاستسلام كما سيتضح من تفسير (هتْنَرْ) بالنون و(دودن) لمعنى مؤلفاته فى ذلك العهد. ثم يأتى عهد رحلته إلى إيطاليا ومكثه فيها وقد أكسبته الآثار القديمة ميلاً إلى المذهب الكلاسيكى وزادت الأثر الذى كان قد اقتبسه بقراءة كتب القدماء. وبعد عودته بدأت صداقته لشيلر الشاعر، وكان شيلر أشد ميلاً إلى التعبير عن الجانب الثائر من النفس البشرية كما فى قصة (وليام تل) و (اللصوص) و (دون كارلوس) و (عذراء أورليان) وهذا مذهب خلفه جوتا بعد تأليف (جوتز) و (أحزان ورتر) كما أن فى قصص شيلر أناسًا وصفهم بصفات الكمال الإنسانى بينما أناس قصص جوتا يتعثرون فى أخطائهم ويتعلمون منها ومع ذلك كان جوتا متزنًا فلم يحاول إطفاء ثورة النفس على مفاسد الحياة ونظمها. ولكنه مع ذلك كان يدعو إلى تطهير النفس أولاً من شوائب الأحقاد والأثرة قبل حمل شعلة الحرية المقدسة. وكذلك كان يفضل العمل المتدرج ويرى أنه أنفع من الطفرة التى تؤدى إلى التراجع والتقاعس والتقهقر والانتكاس.

ولعلَّ اتزانه هذا سبب نقد الأحزاب المتطرفة له. وفى كلماته نجده يحاول إبراز الحق الذى فى الآراء المتناقضة، ويرى أن من الحكمة ألا يهمل الحق الذى يخالط الباطل، وهذا من شدة إعزازه للحق وصيانته له من الضياع فى أى جانب

(١) المقتطف : أول ديسمبر سنة ١٩٤٩.

كان بينما كان غيره إذا أراد محو باطل لايصون الحق الذى يمازجه. ومن أجل هذه الصفة فيه قد يخال أنه يتردد بين النقيضين ولاتردد له. ولعلّ هتنر (بالنون) هو الناقد الذى فسره أحسن تفسير وتابعه إدوارد دودن. ومن تفسيرهما نرى أن ورتر فى قصة (أحزان ورتر) يمثل الشاب الذى يعالج إحساساً شديداً لايؤدى إلى عمل نافع ثم هو يطلب المحال ويسوقه الخيال، وكل هذه صفات مرض ونقص تؤدى إلى الهلاك كما أدت إلى هلاك ورتر. فهو لم يصف ورتر كى يكون بطلاً يحتذى بل وصفه للعظة والاعتبار وتجنب صفات نقصه. ولكن كثيراً من الشبان تشبهوا به فهلكوا. ولعلَّ سبب تشبههم به أن جوتا يكسو أخطاء الشاب ورتر وعيوبه جمال فنه وهو لو لم يكسه لأخطأ، لأن أخطاء الشباب وعيوبها مكسوة بطبيعتها جمال روح الشباب وهو جمال فنى.

وفى قصة (ولهلم مايستر) يتدرج الشاب ولهلم من الانقياد للخيال الكاذب والعاطفة الخرقاء وهما يستهويانه مرة بعد مرة. فيكون عمله وخلقه غير مطابقين لمقاصده فيتدرج بالتعلم من أخطائه وعيوبه إلى العمل الصحيح المنتج وإلى فهم الأمور على حقيقتها بعد تضليل الخيال له تضليلاً طويلاً قد يضل معه القارئ إذا كان شابا، وقد يستهويه ذلك الضلال، ولكن جوتا لا يريد للشاب أن يتعلم كما تعلم ولهلم مايستر من عيوبه وأخطائه؛ إذْ أن هذا يكلفه من الجهد والوقت ماهو أنفس وأطول من أن يضيع هكذا. ومن أجل ذلك رسم خطة للتعليم تجنب الشبان مثل أخطاء ولهلم.

وكذلك نرى فى قصة (تاسو) الرجل الذى يستعبده الخيال ويكاد يهلكه لولا أن له صديقًا ينجيه. أما فى قصة فوست فنرى فوست الذى استفحلت فيه روح التملك والسيطرة حتى تملك حبيبته وهو غير مالك لنفسه ولا مسيطر عليه وكاد يذهب ضحية الإغواء لولا أنه ارتدع واتعظ وعصى إبليس (مفستو فيليس) فى اللحظة الأخيرة، وبذلك نجا ولم يرد جوتا للناس أن ينقادوا لحب السيطرة كما انقاد فوست فى أكثر حياته (ولو أنه عرضه عرضًا فنيا مغريًا) بل هو يرى أن لانجاة للعالم والأمم إلاّ بأن يتعلم الآحاد والأمم ضبط النفس والقضاء على عاطفة حب التملك والتحكم.

وهكذا نجد لكل قصة من قصصه درسًا وموعظة. ويخطئ من يستهويه جمال الفن فلا يبحث عن الفكرة الفلسفية والمغزى المراد.

* * *

وبالرغم من هذه الثقافة العالية فقد اختلف النقاد فيه. فمنهم من أسقطه، ومنهم، وهم الكثرة، من رفعه إلى السماء سماء الفن والثقافة: قال (بورن): «لقد فضل جوتا الدعة والراحة على البطولة والآلام. ولكن الأبطال لاتردهم الآلام عن نصر الحرية ونقد مفاسد الحكومات والانتصار لشعوبهم كما فعل مونتسكيو وفولتير وروسو التعس الفقير المريض الذى عاش بالرغم من ذلك حر الرأى، وملتون الذى لم يمنعه قرض الشعر من محاربة الاستبداد».

وقال منزل: «إن كل مؤلفات جوتا إنما هو عرض لشخصيته فى أحسن وضع فنى. فالرجل مع خصوبة ذهنه وخياله ماكان يهمه غير نفسه وإشباعها من كل إحساس بمظاهر الجمال. وقد كان هم جوتا بدل تحرير العقل الألمانى أن يحمِّل عقله وعقل قومه نير كل ثقافة، وأن يداعب حضارة كل أمة تحت الشمس مداعبة الممثل الذى همه الترف واللذات والأثرة».

وقال جان بول رختر: «عندما أردت أن أزور جوتا قيل لى: إنه الآن لايعجب بشىء ولايستحسن شيئًا وحتى نفسه التى كان يعجب بها أصبح لايعجب بها، فسألت صديقًا لى أن يحولنى إلى حفرية متحجرة أقدمها له لعلَّ غرابة شكلها تستدعى تنبهه لها. وفى أثناء الحديث ظلَّ ساكتًا إلى أن جاء حديث الفنون فقرأ لنا قصيدة له لم تنشر. وكنت أشعر أن صوته يحاول أن يدفع بحرارة قلبه كى تخترق غشاء الثلج المتجمد فوقه» وهذا الجمود ضد ما وصفه به جليم فى شبابه.

وقال كارليل: «إن عصرًا جديد، ذلك العصر الذى يظهر فيه رجل حكيم عاقل يستوعب ويحمل عيوب عصره ويتغلب عليها ويشق لنفسه طريقًا فى اتجاه طريق كان لايمكن اختراقهما، وهذا هو ما صنع جوتا، ومؤلفاته هى مرآة عصره الذى وصفه وأوضحه وفسره».

وقال نيبوهر: «إن الألمان الآن يسمعون اسم جوتا بخشوع وإعجاب كما كان قدماء الإغريق يسمعون اسم هومر. وجوتا قد بلغ فى قومه منزلة لم يبلغها أحد غيره. وبسبب مؤلفاته صارت الأمم الأخرى تهتم للأدب الألمانى وتحترمه».

وقال أمرسون: «ليس فى العالم شىء لم يهتم جوتا بدراسته وتفهُّمه، فهو مقرر يسجل كل أمر وظاهرة. وقد وصل فى بحثه إلى حدود المجهول. ثم خطا خطوة وراءها وعاد سليماً، كما كان قدماء الإغريق يقولون إن الإسكندر المقدونى وصل فى فتوحه إلى حدود العالم ثم خطا خطوة وراءَها».

* * *

وفيما يلى تتمة لما اختير من كلماته مع بعض التعليق عليها:

١ ـ مهما كانت حياة الإنسان حياة معتادة مألوفة ومهما كانت النفس راضية بهذه الحياة فإن فى النفس نزوعًا خفيا إلى مطالب أسمى ونزعات أرفع وأملأ للنفس من تلك الحياة المألوفة المعتادة. والنفس تبحث حولها عن وسائل تدنى بها تلك المطالب وترضى بها تلك النزعات ـ وقول جوتا هذا يذكرنى بقصة جون بوكان التى عنوانها (ملوك اوريون) وهو يتخيل فيها أن ملوك ذلك العالم الموصوف قد حكم عليهم أن يهبطوا إلى هذا العالم الأرضى، وأن تعيش نفس كل ملك فى نفس إنسان من السوقة: وقد ذكر فى المثل القديم أن نفس كل إنسان تجمع بين قرد وأسد. وفى قصة جون بوكان ترضى النفس بالحياة المعتادة المألوفة حتى إذا تحركت نفس الملك التى فيها نزعت إلى مطالب عالية وأظهرت وسائل وملكات أسمى مما اعتادته.

٢ ـ كلما تعلم الإنسان درسًا هاما فى الحياة عاقه الفقر الروحى عن الاستفادة منه كل فائدة، ولكنه مع ذلك يكتسب ولو شيئًا قليلاً من الخبرة به. ولعلَّ هذا الفقر الروحى كما سماه جوتا، أو العجز الدائم كما سماه مينكين الناقد الأمريكى ـ هو سبب تخلف الإنسان عن مسايرة العلم، وسبب عدم الاستفادة منه أعظم فائدة كما وصف الأستاذ جوليان هوكسلى، وسبب اختلال حياة الناس

واعتزازهم بذلك الاختلال أو اعتزاز بعض المفكرين زاعمين أنه لو بطل الاختلال توقف نمو الإنسان الفكرى. وهذا من باب جعل الإنسان نقصه وعيبه محمدة وميزة. وهذه الصفة فى الإنسان قاعدة عامَّة سيكولوجية، كما أوضح جوتا فى مقال سابق أى تحويله نقصه إلى مبدأ محمود.

٣ ـ قد يخطئ من يظن أن شرف النفس يعوق صاحبه لطيبة قلبه عن إدراك مكر الخبثاء. ولكن اعتقاد المرء هذا الظن قد يدعوه إلى الاسترسال وقلة الحيطة، فينكشف أمره لدى شريف النفس، حتى ولو كانت آراؤه محدودة كما أن مخالفة عمل الماكر لما ألفته نفس الشريف تطلعه أيضًا على احتيال الماكر الخبيث.

٤ ـ لايستطيع المرء أن يؤسس مثال كمال إلاَّ على أساس الأمور الواقعة الكائنة، لأن الإنسان لايستطيع أن يصل إلى الكمال غير المحدود إلاَّ عن طريق الأمر المحدود. وأما إذا حاول المرء تأسيس مثال الكمال على خياله غير المحدود لا على الأمور الواقعة المحدودة ضل سعيه وازدهاه الخيال واستعبده الوهم.

٥ ـ القوة التى تدعو المرء إلى التحكم والأثرة هى القوة نفسها التى لو شاء دعته إلى أن يملأ حياته جمالاً وحرية وإخاء، فتعم العالم هذه الأمور. ولكن عليه أن يوجه تلك القوة فى نفسه إلى الجمال والحرية والإخاء توجيهًا مستأنفًا مستمرا مثابرًا عليه.

٦ ـ إن الشعور الشديد فى النفس إذا لم يُتَّخَذْ كقوة لأداء عمل نافع كان مرضًا وأدَّى إلى اختلال الحياة.

٧ ـ إن الخرافات جزء أصيل فى النفس الإنسانية، فإذا حاربناها فإنها تختفى حتى نظن أنها قد زالت. ولكنها تكمن فى خبايا النفس حتى تجد فرصة فتظهر(*).

(*) (هذه النظرية لاتطلق على جميع الناس، فهناك أشخاص قمعوا كل طرافة قمعًا أبديًا فلايمكن أن نجد فى أنفسهم فرصته لكى تظهر ـ المقتطف).

٨ ـ إن الرجل الذى يتعلم بالفطنة الحدود والقيود التى ينبغى أن يتقيد بها ثم يلتزمها مختارًا غير مقهور ـ يستطيع مع ذلك أن يصل إلى الحرية. أما الرجل الذى يُقْهَرُ على التزام تلك الحدود والقيود قهرًا فإنه قلما يصل إلى الحرية، وهو إن وصل إليها وجد لها مرارة وألماً.

٩ ـ لاتنال أمة ملكة الحكم على الحقائق حكمًا صادقًا إلاَّ إذا استطاعت أن تحكم على نفسها حكمًا صادقًا، فالأمة التى تَتَهرَّب من الحكم على نفسها لاتستطيع الحكم على الحقائق حكمًا صادقًا. وهى لاتستطيع الحكم على نفسها إلا بعد مراحل من الثقافة والنضج والوعى الصادق.

١٠ ـ إن مقاومة الحقائق الفكرية مثل تحريك النار إنما تُطير منها ماهو شبيه بالشرر فتشتعل النار فيما لم تشتعل فيه من قبل. فالعنف ليس السبيل لمحاربة الرأى، لأنه يعدّ عجزًا عن محاربته بالحجة.

١١ ـ ليس النجاح فى الحياة فى معرفة النفوس البشرية، بل أن تكون أكبر لباقة ومهارة فى وقت معين من منافسك الذى هو أمامك يواجهك. فربما كنت خبيرًا بالنفوس، ولكن لاتستطيع أن تنتفع بخبرتك.

١٢ ـ من الصعب أن يعرف الناس بعضهم بعضًا حتى ولو كان داعيهم إلى ذلك العرفان أحسن الميول وأسمى المقاصد، فكيف بهم إذا تملكتهم إرادة الشر كما يحدث فى كثير من الأحوال عند الحكم على الناس. وهذا كما قال رومان رولان: «إن كل إنسان لغز يصعب حله، سواء أكان يحاول حل لغز نفسه أم لغز نفس غيره، ومع ذلك فلايستطيع الناس أن يمتنعوا عن الحكم على الأنفس والأخلاق؛ إذ أن هذا الحكم جزء ضرورى من الحياة.

* * *

تتمة نظرات جوتا[1]

ـ ١٩ ـ

نشرنا فى العدد السابق جملة من هذه النظرات العميقة، بقيت نظرات حارَّة فى غرور الإنسان وارتكابه الأغلاط بسبب هذا الغرور.

١٣ـ من أشد أغلاط الشبان حمقًا ظنهم أنهم يفقدون أصالة الرأى وميزة الابتكار إذا اعترفوا بحقيقة اعترف بها الناس قبلهم فيحاولون ابتكار شىء جديد حتى ولو كان مناقضًا للحقيقة ومخالفًا لها.

١٤ ـ الكفر بالنعمة وإنكار المعروف والجميل المصنوع نوع من العجز والضعف، وما رأيت قط رجلاً قادرًا يكفر بالنعمة وينكر الجميل إلاَّ إذا كان فى نفسه جانب ضعف خفى.

١٥ ـ ليست التقوى غاية، وإنما هى وسيلة إلى الثقافة النفسية، والذين يتخذونها غاية لا وسيلة ينتهون إما إلى مخادعة أنفسهم وإما إلى مخادعة الناس، ولعله يعنى بالتقوى التى هى غاية مظاهر التقوى التى تخلو من الصفاء الروحى وطيب السجايا.

١٦ ـ ليس أساس الصداقة الحب، بل أساسها الاتفاق فى المقاصد والأغراض مهما كان اختلاف الوسائل وحالات الحياة. قال جوتا ذلك فى الصداقة بينه وبين شيلر وكانا ينشدان الحق والجمال على اختلاف وسائلهما.

---

(١) المقتطف، يناير سنة ١٩٥٠.

١٧ ـ كما ينبغى للمرء أن يحذر كل الحذر من العناد والإصرار على الأخذ برأى نفسه ونظره إلى الأمور. كذلك ينبغى أن يحذر من عجزه إذا حاول التخلص من هذه الحالة والأخذ برأى غيره.

١٨ ـ كل أمر يحدث يحاول أن يشغل مكانًا لنفسه، ومن أجل ذلك يدفع أمرًا آخر عن مكانه ويقلل مدَّة بقائه، فالأمور بينها تنازع كتنازع الناس البقاء!!

١٩ ـ الرجال والشيوخ أميلُ إلى استنتاج القاعدة العامة وإلى تفضيلها. أما النساء فهم مثل الشبان أميل إلى الشواهد الشاذَّة عن القاعدة ـ على أن كل إنسان يميل أحيانًا إلى تطبيق القاعدة من غير نظر إلى الأحوال الخاصة الاستثنائية، كما يميل أحيانًا إلى خلق حالة استثنائية لاوجود لها.

٢٠ ـ لـمَّا كان الخطأ يعاد فى العمل ويتردَّد كان من الواجب أن نعيد ذكر الصواب والحق مهما كانا معروفين. ومن الخطأ أن نهمل ذكرهما اعتمادًا على أنهما معروفان مألوفان. وهذا يصدق فى التعليم كما يصدق فى الحياة الخاصة أو العامة.

٢١ ـ ربما استطاع المرء مقاومة مضايقة الحوادث اليومية بذكر حوادث تاريخ الجماعات الإنسانية فى العصور العالمية وما كان بها من كوارث يتأسَّى بها.

٢٢ ـ إن أدب اللغة المكتوب المتوارث هو جزءٌ ضئيل مما قيل وما صنع فى حياة الناس. ومع ذلك نرى فى كتب الأدب أمورًا وقصصًا وأقوالاً وأحوالاً وآراءً وأعمالاً وأحاسيس معادة مكررَّة. وهذا يدل على أن عقل الإنسان ومآله محدودان.

٢٣ ـ أحسن الحكومات هى التى تعلم المحكومين حكم أنفسهم بأنفسهم.

٢٤ ـ قد يكون خلوُّ المرء من الخطأ سببه أنه لايعتزم عمل أى أمر معقول، فهذا الخلوُّ من الخطأ ليس فضلاً له بل هو قصور.

٢٥ ـ أحسن الجماعات هى التى يكون حديثها تعليمًا وسكوتها تهذيبًا.

٢٦ ـ إذا استأنف إنسان حكم أهل عصره ولجأ إلى ما يتوقع من حكم الأجيال القادمة دلَّ ذلك على شعور واضح منه بأن فى حياة الإنسان حقا خالدًا إذا لم يظهر لأول وهلة فإنه سيظهر فى المقبل من الدهر، ويحوّل القلَّة إلى كثرة. وقول جوتا هذا صحيح، ولكن هذا الشعور قد يكون مؤسسًا على غرور الثقة بنفسه أو غرور الثقة بالناس.

٢٧ ـ عند المحاجَّة ينبغى الحذر من أن تنقلب إلى كره ومقت كما يصنع بعض العلماء عند تفنيد كل منهم رأى مناظره. فإن شعورهم بكره رأى المناظر يتحوَّل إلى شعور بكره صاحب الرأى حتى كأنه عدوٌّ لدود. وقد يكون قول جوتا هذا صحيحًا، إلاَّ أن هذا التحول أكثر ما يكون بسبب الأثرة وحب الاستعلاء والغرور وطلب الظهور، وهى صفات كثيراً ما تكون فى نفوس العلماء وتظهر عند البحث النظرى، والشعور بكره الرأى إنما كان لأنه يخالف رأى كارهه، فقد ذكر جوتا فى مقال سابق أن الإنسان قلما يهمه انتصار الحق إلا إذا كان انتصاره يزكى ويعزز رايه.

٢٨ ـ كما أن روما القديمة كان بها عدا سكانها من الأحياء سكان من التماثيل المنصوبة فى كل مكان، كذلك هذه الدنيا بها فضلاً عن الحقائق دنيا من الأوهام أشد أثرًا فى النفوس، وأكثر الناس إنما يعيشون فى دنيا الأوهام التى فى الدنيا وهم يحسبون أنهم يعيشون بنفوسهم وقلوبهم وعقولهم فى عالم الحقائق.

٢٩ ـ لقد شُبِّه ثوار الثورة الفرنسية بالمجانين، ولكن أفواه المجانين قد تنطق بالحق حين يخشى المستذلون النطق به. وبالرغم من ذلك فقد حَذَّر جوتا الألمان من الاقتداء بالثورة الفرنسية كما نصح الأمراء بالإصلاح.

٣٠ ـ يكثر شكُّ المرء كلما اتسع نطاق مايطلق من المعرفة فلا يصح أن يقال عن رجل إنه يعرف شيئاً إلاَّ إذا كان ما يعرفهُ أمرًا محدودًا معينًا فإذا انتفى التعيين والتحديد انتفى العرفان.

٣١ ـ قد ظللت أشغل نفسى وأعَنِّيها بالنظريات العامَّة حتى فطنت إلى النجاح العظيم الذى يستطيعه أهل الفضل إذا عملوا فى اتجاه واحد محدود بدل توزيع جهودهم على مطالب متعددة.

٣٢ ـ كنت من عهد الصغر أشجع بشغف وعبث الملكات المشكوك فيها، وهذا خطأ لم أستطع التخلص منه إلى الآن، والظاهر إنه يقصد ملكات غيره، ولكنه ربما يصدق فى نفسه أيضًا لاتساع مطالب ثقافته وتنوعها تنوعًا باهظًا فادحًا.

٣٣ ـ لقد عاش الناس فى عهود التاريخ حتى فى بحثهم عن الجمال والحق تحت ظلال الحروب المتكررة؛ وذلك لأن الإنسان يأبى أن يحكم نفسه وهو مع ذلك يريد أن يحكم غيره. ولا نجاة للناس والأمم إلاَّ بأن يتعلم الإنسان ضبط النفس وحكمها بدل أن يحاول حكم غيره والسيطرة عليه.

وهذه الحكمة هى خلاصة قصة فوست وهى أنه مادام شَرَهُ التحكم والتملك دافعًا للنفس فلا نجاة ولا أمان فى العالم، بل تعتدى الأمة على الأمة ويعتدى الإنسان على الإنسان.

٣٤ ـ إن الشغف بالحق يتطلب منا أن نعرف حدود فكرنا، فإذا انتفى هذا الشغف حلَّ الخطأ، وهو يتملقنا ويفهمنا أن فكرنا غير محدود بحدود. ومن أجل ذلك كان الخطأ أقرب إلى طبيعة الإنسان من الحق؛ لأن الإنسان يميل إلى التخلص من الحدود.

٣٥ ـ ومن أجل أن آراءَنا محدودة نعتقد أننا دائمًا على صواب فيما نرى. وقد ترى رجلاً كبير العقل يخطئ ويجد مسرة فيما يخطئ فيه. وقد يستخدم ملكات عقله العظيمة فى الدفاع عن الخطأ.

٣٦ ـ المقاصد السامية أجدى على طالبها من المقاصد الأقل سموا وسموقًا حتى ولو تحققت الثانية ولم تتحقق الأولى.

٣٧ ـ ينبغى الحذر من أنصاف الحمقى وأنصاف العقلاء أكثر من الحذر من البُله ومن الذين كمل عقلهم؛ لأن الأصناف الأولى أكثر خطرًا. إذ أن البُلْه لبلاهتهم لايتقنون تدبير الشرّ، والذين كمل عقلهم يرون فى مطالب عقلهم وثقافتهم ماقد يترفع بهم عن تدبير الشر. ولا يراد بالبله طبعًا المجانين الذين يدفعهم دافع إجرامى.

٣٨ ـ حالنا فى قراءة الكتب مثل حالنا مع الأصدقاء الجُدُد، ففى أول الأمر إذا عرفنا إنسانًا يسرُّنا أن تكون هناك مشابهة وملاءمة عامة، وأن يكون هناك تأثير من الناحيتين فى أى جانب من جوانب الحياة. فإذا نضجت المعرفة واتصلت المخالطة ظهرت أوجه الاختلاف بين الصديقين. والمسلك المعقول لايكون بأن نسلك مسلك الأطفال فى إحجامهم ونفورهم وخصامهم، بل يكون بالاستمساك بما نتفق عليه ثم نفهم أسباب الاختلاف من غير إحجام ومن غير رغبة فى الموافقة من غير فهم واقتناع.

٣٩ ـ إننا لانستطيع معرفة الصفات الغالبة على إنسان بالنظر إليه فى البيئات التى يتكلف فيها العادات والأخلاق، كما يكون فى زياراته وفى الحفلات، وإنما نستطيع ذلك بدراسته فى بيئته الخاصة التى يرفع فيها التكلف والاحتجاز.

٤٠ ـ ليس التسامح هو غاية ما يراد من جميل الأخلاق والطباع، فالتسامح خطوة أولية ينبغى أن تسوق المتسامح إلى فهم ما يتسامح فيه وإلى العطف عليه بالفهم.

٤١ ـ إننا كلنا نعيش فى الماضى بأفكارنا وإحساساتنا، وهذا العيش فى الماضى إذا استشرى يؤدى إلى الهلاك؛ لأننا بهذا الاستشراء نصير عالة على الماضى فنعيش عليه.

* * *

تتمة نظرات جوتا

ـ ٢٠ ـ

نلخص الأمور التى أخذها عليه النقاد فنقول: إنهم أخذوا عليه ـ كما يقولون ـ أن نظرته إلى الجمال كانت نظرة إغريقية قديمة لانظرة مسيحية، وأنه كان فى اكتمال عمره وشيخوخته لايتبسَّط مع بعض زوَّاره بل يبدى بعض الجفاء إذا لم يكن زائره ممن يتوقع أن يستفيذ منهم ثقافة، وأنه لم ينظم القصائد ولم يكتب المقالات لحث الألمان على قتال الفرنسيين. وزاد على ذلك أنه أخطأ فى قَدْرِ قوة نابليون، وأنه لم يمالئ الأحرار الألمان فى موقفهم من أمرائهم، وأن الثقافة كانت دائرة عنده حول تكميل الفرد فكان بها شيء من الأثرة. وتعجبنى صراحة هنرى هينى الشاعر الألمانى الذى نقد جوتا كما شاء، ثم اعترف أن شدته فى نقده إنما كانت لأنه حسده عظمته، وربما ظلم هينى نفسه بعض الظلم فى هذا القول، فإن مزاج هينى الثائر على كل شيء ما كان يستطيع أن يقدر اتزان جوتا حيث يتزن، وبعد أن كان ينسبه إلى البرودة وجفاء القول فى شعره عاد يقول: إن أغانيه الشعرية أحسن وأعظم الأغانى، وهو فيها أعفُّ قلمًا ولسانًا من غيره. وأما موقفه من الفرنسيين فإنه لم يؤجر لهم قلمه ولسانه ولا أجَّرَهُ لغيرهم من الأحزاب والطوائف، وقد رفض ما اقترحه عليه نابليون أن يجعل باريس مستقرَّه، ولم تكن ألمانيا فى عهده إلاَّ دويلات متنافرة، وقد أوشكت بروسيا أن تتفق ونابليون على أن يعطيها هانوفر ثم علمت أنه يخابر الحكومة الإنجليزية لإرجاعها إلى أسرتها، وكانت بافاريا، وسكسونيا، وورتمبرج، وبادن، وغيرها مع نابليون، ولم ينشق عنه أكثر أنصاره الألمان إلا بعد انهزامه فى موقعة ليبزك،

(١) المقتطف، فبراير سنة ١٩٥٠.

ويعترف كل الأدباء أن الأديب يستطيع أن يناصر الحرية من غير كتابة شعر أو نثر سياسى. وأما أن الثقافة عند جوتا كانت تدور حول تكميل الفرد وأن بها من أجل ذلك شيئًا من الأثَرَة فليس كل الأثرة من نوع واحد، والأثرة التى هى إيثار للثقافة أمرٌ مثمر منتج لم يستغن عنه مثقف. وأما الذين كانوا يريدون أن يُقبِلَ عليهم وهم يضيعون وقته الثمين ثم يشتكون إذا لم يفعل فقد قال فيهم جوتا: - إن أحمق اللصوص هم اللصوص الذين يسرقون وقتك واطمئنان بالك. ولا نريد تبرئته من كل عيب، وإنما نريد أن نظهر مافى نقد النقاد له من التحامل والمبالغة التى تغير الحقائق، والحكم له بأقواله أصدق من الحكم عليه بأقوال نقاده، حتى ولو كان فى أقوالهم بعض الحق.

وفيما يلى تتمة لنظراته مع التعليق القليل على بعضها:

١ - لا دواء يستطيع أن تعالج به شعورك بامتياز غيرك إلاّ بالعطف والمودة لمن هو ممتاز عنك فبهما ترتفع إلى مرتبته، أما الحسد والحقد فإنهما لا يعالجان امتيازه عليك، بل بهما تزداد انحطاطًا، ولا يستطيع أن يدرك مظاهر العظمة وصفاتها فى الناس إلا من كان على صفة من صفات العظمة.

٢ - إنى أشفق على الذين يصخبون ويحزنون بسبب فناء كل الأمور ويسترسلون فى تأمُّل يجعل الحياة عبثًا وغرورًا. فإننا ما خلقْنا إلاّ لكى نجعل الأمر الفانى خالدًا بأن نستخلص منه حقيقته وجماله، وهذا لايكون إلاّ إذا قَدَرْنا الحالتين حق قدرهما، والذى يستطيع أن يستخلص من الأمور الغانية جمالها وحقيقتها يستطيع أن يقول للساعة العابرة تريَّثى.

٣ - يظن المرء أنه إذا تكلم فإنه دائمًا يقول ما ينطبق تمام الانطباق على مايُحسُّ أو مايُلاحظ أو ما يُجرِّب أو مايتخيل أو ما يُفكر فيه، ولكنه إذا فحص الأمر وجد أن كلامه قلما ينطبق تمام الانطباق؛ إذ أن الكلمات التى ينطق بها المرء كثيرًا ماتكونِ الحاضرة التى هى عوضٌ عما لايؤاتى فهى من قبيل سدّ خانة. وفهم الإنسان وفكره كثيرًا مايكونان أحسن مما يعبر عنهما من الكلام.

٤ ـ إن الإنسان لايفعل دائمًا ما ينبغى أن يثابر عليه من محاولة إزالة مايعلق بذهنه أو بذهن غيره من الأفكار المخطئة، أو التى لامحل لها أو المقصرة عن الصواب بعض التقصير فيتركها عالقة بذهنه وهو لايعرف عاقبتها. والواجب المفروض عليه هو أن يثابر على محاولة محوها بأن يكون مقصده واضحًا صادقًا نبيلاً، وتركها عالقة يكون إما من الكسل أو قلة الاكتراث أو سوء النية.

٥ ـ كل مرحلة من مراحل العمر لها نظرة خاصة وفلسفة هى بها أشبه وإليها أحوج. فالطفل لحداثة عهده بالدنيا يتلمس الموجودات، ويتعرف الحقائق الكائنة، فنظرته إذًا واقعية (رياليست) فإذا كبر وصار شابا ازداد عاطفة، وأملاً ونظرًا إلى المستقبل. ومن يزداد من هذه الأمور يكون مثاليا (ايديا ليست) فإذا اكتمل وصار رجلاً وجرَّب أمور الحياة وشك فى وسائله وتساءل هل هى تُنجح مقاصده ودبر وحزم أمره لذلك كان عمليا (براكتيكال) فإذا شاخ وهرم ورأى كيف أن الأمور كثيرًا ما تأتى عفوًا، واتفاقًا وبالمصادفة، وأن الأحمق قد ينجح والعاقل الحازم يخيب، وأنه كثيراً مايكون الجيد والردىء إلى مصير واحد فعندئذ يرى الحياة لغزاً وسرا أى يصير (ميستيك) ولكن ليس معنى ذلك أن هذه النظرات منفصلة فى مراحل العمر انفصالاً تأما، بل كل منها تتعدى مرحلتها، وقد تجتمع فى مرحلة واحدة من العمر.

٦ ـ الشك العامل النشط المنتج هو الذى يحاول دائمًا أن يتغلب على نفسه، وأن يصل بالخبرة والتجارب إلى يقين محدود. وأن يكون هم صاحبه تطبيق ما وصل إليه ببحثه وبرهانه فى الأمور العملية.

٧ ـ يوجد أناس كثيرون يخيل لهم أنهم يفهمون كل ما يلاقونه فى الحياة من تجارب، وإنما هم يقنعون أنفسهم بذلك كى يستريحوا، إذ الواقع أن فى الحياة ـ ولاسيما فى اختلاف أعمال الناس وأخلاقهم ـ مايحير.

٨ ـ إن الرجل المغرور المعجب بنفسه يطلب مدح الناس إياه، ولكنه لايطلب هذا المدح أو الإكرام أو الإعجاب لأعمال أو صفات مجيدة، وإنما يطلبه لشخصه مهما كانت صفاته وأعماله، وهذا الطلب ناشئ من شعوره بالنقص، فيُحبُّ أن

يستعيض عما نقص بالمدح والإكرام، ودافع النقص هذا قد يوجد حتى فى ذوى الكفايات والنبوغ الذين يجدون نقصًا فى أنفسهم.

٩ ـ إن السخاء والأريحية أنواع، ولكن أصدقها وأحسنها موقعًا وقبولاً السخاء الذى هو عطف التفاهم والتقدير والقدر المنصف.

١٠ ـ إننا لانستطيع أن نظل على خلاف مع من يتفق معنا فى الطباع والميول. ومهما طال الخلاف فمآله إلى الاتفاق. أما الذين يخالفوننا فى الطباع والميول فمآل الاتفاق معهم إلى الخلاف، وهذا يشبه قول (مارسل بروست): إن التدانى إنما يكون باتفاق الأمزجة والأذواق والميول، لا باتفاق الآراء والنظريات.

١١ ـ أكبر خطر على قومنا الألمان مجاراة جيرانهم ومحاكاة الأمم التى سبقتهم إلى الظهور والحضارة من غير اتعاظ بعبر التاريخ وعظاته. وأعظم ما يفيد الألمان أنهم لفتوا العالم إلى أنفسهم فى زمن متأخر بعد أمم كثيرة، أى أن الفائدة فى اتعاظهم بما فى حياة من سبقهم ـ وما فات جوتا مالفت النظر إليه فى مكان آخر من أن التجارب لاتكتسب بالتلقين، فكما أن الحياة تبدأ تجاربها من جديد إذا كانت حياة الآحاد من الناس أو الأجيال أو القرون، فكذلك حياة الأمم. وهو يعلم ذلك، ولكن صنعه فى إرشاد قومه وعظتهم صنع المعلم الذى يحاول أن يجعل المتعلم يكتسب خبرة بالتعليم سواء أأفادته أم لم تفده كل الفائدة.

* * *

تتمة نظرات جوتا

ـ ٢١ ـ

١٢ ـ أشد الصعوبات توجد حيث لا يبحث عنها الإنسان، سواء أكان ذلك فى الحياة أو فى الأدب أو فى العلم، فإذا لم يجد الإنسان صعوبات فليس معنى ذلك أنها غير موجودة.

١٣ ـ لو كان من المستطاع ادخار الوقت، وخزن الزمن كما يدخر المال، وكما يخزن الذهب لحين الحاجة إلى صرفه وبذله فى علم ما، لكان لذوى الكسل بعض العذر فى عدم صرف وقتهم فى العمل المنتج، ولكن حتى لوكان خزن الزمن وادخاره مستطاعًا ليصرفه صاحبه عند الحاجة، لكان هذا أيضًا من ضعف رأى صاحبه؛ إذْ يكون كمن يصرف من رأس ماله المدخر بدل الصرف مما يربح بالعمل، والذى يصرف من رأس ماله لا من ربحه، يوشك أن يُفلس.

١٤ ـ قيمة كل أمر فى الحياة تكون على قدر معونة المرء على تكميل نفسه وتهذيبها وتثقيفها. ولعلَّ فى هذا بعض ما فى قول هازليت: إن الإنسان إذا تمنى أن يكون إنسانًا آخر فهو فى الحقيقة لايتمنى إلاَّ أمورًا تُكمل شخصيته الخاصَّة، كأنْ يتمنى ذكاء هذا، أو ثروة ذلك، أو سعادة آخر؛ إذ لو تخلّى عن نفسه وعقله وعن ذكرياته وإحساساته وأفكاره لصار إنسانًا آخر، فلا يفيده تحقق ما يتمناه بل يفيد هذا الشخص الآخر. وإذاً لو خُيِّر أفقر صعلوك وطلب منه أن يتخلى عن نفسه، وأن يكون ملكا أو ثريا أو عالـمًا ما تصورَّ إلاَّ أن ينال مُلْك الأول، أو ثروة الثانى، أو علم الآخر، على شرط أن تبقى له نفسه، وهذا مصداق قول

(١) المقتطف، مارس سنة ١٩٥٠.

الإسكندر المقدونى: لو لم أكن الإسكندر لتمنَّيْتُ أن أكون ديوجتيز (أى الفيلسوف المعروف).

١٥ ـ مهما حاول الإنسان أن يفسر أسباب جودة الأمور الجيدة الممتازة، فإن فى جودتها صفات لاتفسر: إذ تجلُّ عن التفسير. وهذا يذكرنى أحد أصحاب الفن الذى كان مولعًا بالنظر إلى صورة موناليزا التى عنوانها المسرورة (لاجيوكوندا). فلما كتب والترباتر وأطال فى وصف أسباب جودتها وابتعاثها للسرور، قال صاحب الفن: إن أقوال والترباتر عن هذه الصورة إنما هى من أدب الخيال وقصصه، أى ليست أسبابًا حقيقية.

١٦ ـ إنه أمر مُحْرجٌ حقا أن يمدح الرجل الممتاز، وأن يعجب به الحمقى والأغبياءُ وكأن جوتا ينظر إلى عكس قول المتنبى أو إلى مايكمل معنى بيته:ـ

وإذا أتتك مَذَمَّتى من ناقصٍ فهى الشهادة لى بأنى كامل

وإذا أتى المدح من أهل النقص كان مدحًا مريبًا، وربما يخيل للسامع أن الممدوح ناقص مثلهم، وهذا يتفق أن يكون، وقد لايكون دليلاً، ولكنه محرج كما قال جوتا.

١٧ ـ كلما كبر الإنسان ازداد تسامحًا إذا لم ينس أخطاءه وأغلاطه فى ماضى حياته، وإذا عامل الناس بمثل ما عامل نفسه به فى تلك الأخطاء والأغلاط. وهذا شرط قلما يستقيم؛ إذ أن نفس المرء كثيرًا ما تدعوه إلى نسيان أغلاطها وأخطائها، وإلى نسيان تسامحه مع نفسه، بل إنه كثيرًا ما يحسب أنه يكفر عن تسامحه مع نفسه فى ذنوبها بالتشدد والعنف مع الناس إذا وقعوا فى مثلها، إلاّ إذا أراد أن يعذر نفسه بأن يعذر الناس، ولكن يمنعه من ذلك خوفه أن تظنَّ به محاولة عذر نفسه إذا عذر الناس فيحجم عن عذرهم.

١٨ ـ إن صاحب الفن أو الصنع قد يجيد الصنع فى فنه، ولكنه قد يعجز عن أن يفسر سبب جودة صنعه، كما قد يعجز عن تفسير سبب جودة صنع غيره. والواقع أن صاحب الفن قد يكون غافلاً عن جودة صنعه حتى أنه قد يفضل من صُنْعَيْهِ أقلهما جودة فيحكم له بأنه يمتاز عما هو أحق بالتفضيل.

١٩ ـ فى كل المقاصد والأغراض الإنسانية إذا فصل المرء بين الأمر الواقع وبين التفكير النظرى أخلَّ بالفن والحياة، إذ أن كلاً منهما متمم ومصحح لأخيه.

٢٠ ـ عندما علم بعض الفرنسيين أن ميرابو الخطيب كان مدينًا إلى حد كبير فى خطبه للمادة التى جمعها له دو مونت، ظنوا أن هذا أمر ينقص من قدر ميرابو. وقد قال جوتا: كأن أمثال هؤلاء القوم يحسبون أن هيراقليز رب القوة عند الأغريق كان يستطيع أن يستغنى عن الغذاء، وما كان يستغنى فى تلك الخرافات عنه ليظهر قوته، وكذلك العبقرى إنما كان عبقريا لقدرته على الإمساك بالأمور يمينًا ويسارًا، ولقدرته على الاستفادة منها مادة لعبقريته وعلى إعطائها حياة خاصة من لبه وإحساسه. وقال جوته أيضًا: إن ابتكار العبقرى إنما يكون بذكريات مؤلفة تأليفاً فنيا ومنسقة تنسيقًا مبدعًا.

وقد ألمَّ أبو العلاء المعرى بهذه المعانى وأبدع فى باب التشبيه كل الإبداع فى قوله:

والنحل يجنى المر مَّن نور الرُّبَا فيصير شهدًا فى طريق رضابه

أى أنه يجنى من الزهر ويعطى بدل ما جنى رضاب النحل، وكذلك العبقرى.

٢١ ـ من الصعب أن يظل المرء منفردًا عن المذاهب والجماعات؛ لأنه إذا التحق بطائفة منها فهو حتى فى حين إخفاقه وخيبته يجد الاطمئنان والسكينة والأمان. ويزداد المرء رغبة فى الخير إذا اتصل بجماعة ترغب فى الخير، كما يشجع على عمل الشر إذا كان فى طائفة ترغب فى الشر. وقول جوتا يذكرنى كلمة لهازليت فى صعوبة بقاء الإنسان مستقلاً عن الجماعات والأحزاب قال: إنه تتضاءَل لديه نفسه حتى يتهمها بالباطل، وحتى يتهم رأيه إذا ألحَّ عليه كل الناس بالخلاف، ويظل كأن الأرض زالت من تحت قدميه، وظلَّ معلقاً فى الفضاء ـ والواقع أن من يدَّعى الاستقلال عن الأحزاب والجماعات يتصل بها فى أمور كثيرة، فليس هناك انفصال تام.

٢٢ ـ كثيراً ما تكون النظريات العامة محاولة من الرجل المتسرِّع القليل الصبر الذى يحاول التخلص من الظاهرات ومن الجهد المرهق الذى يقتضيه تفسيرها، فيضع مكانها صورة أو فكرة أو كلمة جوفاء ينخدع بها من لايجرب الأمور بنفسه، بل يعتمد على الروح الحزبية بين الجماعات.

٢٣ ـ عندما نفقد الشغف بشىء والرغبة فيه، نفقد ذكراه، كما أن المرء لايسمع مالا يود سماعه، وهذه نظرات سيكولوجية من جوتا هى أشبه بأقوال سيجموند فرويد.

٢٤ ـ لايستطيع المرء أن يكتسب ثقافة من غيره إلاّ إذا استطاع تثقيف نفسه.

٢٥ ـ إذا أخطأنا فى المحسوسات، فليس الخطأ خطأ الحواس، بل خطأ ملكة الحكم على المحسوسات، فإنها تخطئ إذا لم تعرف حدود الحواس، وطرق استخدامها استخدامًا صحيحًا.

٢٦ ـ كثيراً ما يتقدَّم من يدافع عن الباطل بلطف وأدب، بينما يعتزّ من يرى نفسه على حق بما يراه من الحق فى نفسه فيستغنى عن اللطف والأدب. لأن الأول يريد أن يكون باطله مقبولاً، فيدلف إلى الناس بما تهوى قلوبهم، والثانى قد يخذل الحق الذى يدافع عنه بالاعتزاز الذى ينأى به عن اللطف والأدب.

وفى الختام نقول: إن فى مؤلفات جوتا فكرًا كثيرًا يدعو إلى الفكر، وإن الحكم له بأقواله أصدق من الحكم عليه بأقوال نقاده، حتى وإن كان فى أقوالهم بعض الحق.

* * *

جوتا بين الفرد والعالم ـ الخاتمة

ـ ٢٢ ـ

قال مازينى الزعيم الأيطالى المعروف: ـ «يصح أن نُسمِّى مؤلفات جوتا دائرة معارف فى أمور بَدَد لانظام لها، وذلك لأنه فقد الشعور بالوحدة التى تؤلف بين الحقائق والأمور، وكيف يكون هذا الائتلاف فى مؤلفاته، وهو لامكان للإنسانية فيها، ولا شعور بها فى قلبه. لقد حمل (فيخت) الفيلسوف بندقيته بعد محاضرة من محاضراته كى يشجع الدفاع عن الحرية، وجوتا ساكن لايتحرك، بينما كانت الشعوب حوله تناضل عن حقوقها... وبدل أن يصف مثال الكمال فى آحاد قصصه اعتنق مادية شعرية أدته إلى عدم المبالاة وإلى انتحار جهوده الأدبية»... وفى مقال آخر يقول: «إن فكر جوتا فكر عقيم؛ لأنه لا صلة له بالعمل».

وقال هنرى هينى: ـ «إن قصص جوتا ألفاظ ميتة، لا تؤدى إلى عمل نبيل، كما تؤدى قصص شيلر».

وقال هنرى هينى فى مكان آخر «إن الفن الذى يقتضيه وصف آحاد قصص جوتا الذين يتعثرون فى أخطائهم أشق وأعظم من الفن الذى يَتَطَلَّبُهُ وصف آحاد قصص شيلر».

وقال شتاويل:ـ «لقد أخطأ الناس فهم جوتا، وفهم قلبه الكبير، ونفسه العظيمة، فإذا أهملنا مؤلفاته أهملنا ما فيه دواءٌ وشفاءٌ لكل حمَّى تنتاب حياتنا

(١) المقتطف، مايو سنة ١٩٥٠.

الحديثة، ولقد صرَّح جوتا فى آخر «فرست» أن لانجاة للعالم والأمم، إلاّ إذا تعلم الآحاد والشعوب ضبط النفس والتغلب على شهوة التملك والتحكم».

وقال ألدوس هكسلى:- «لقد فطن جوتا إلى الأسباب التى تقتل الميزات الفردية فى الحضارة الحديثة فرجع هو وشيلر إلى الحياة الإغريقية القديمة، إذ كان الأغريق ينشدون حياة فيها الحرية اللازمة لظهور الطباع والميزات الفردية».

وإشارة ألدوس هكسلى تُذكّر بمقالة (الحضارة واختلاف الطبائع) التى نشرناها فى المقتطف فى عدد مارس سنة ١٩٤٧ وقد اقتبسنا ما وعاه ثيوكيديدس من خطبة بركليز الشهيرة التى يفخر فيها بالحضارة الأثينية، وأنها تعطى كل إنسان الحرية اللازمة لطباعه وميزاته الشخصية. وذكرنا فى تلك المقالة رأى جيزو المؤرخ السياسى الفرنسى ورأى جون ستورت ميل الفيلسوف الإنجليزى، وأنهما كانا يريان أن الحضارة تكون أتم ثمرة وأزهر زهرة، وأعظم فضلاً وأثرًا إذا صيغت الطباع الفردية.

ومن أجل ذلك يرى ألدوس هكسلى أن لجوتا فضلاً كبيرًا على الحضارة الحديثة.

أما خصوم جوتا الذين أشار مازينى إلى مبالغتهم فى خصومته فقالوا: إن مؤلفات جوتا فى الأدب الألمانى مثل داء السرطان فى جسم الإنسان، فيصدق فيهم قول ستاويل إنهم لم يفهموا مقاصده. وأما اتهام مازينى جوتا أنه كان لايشعر بالإنسانية فهل أدَلَّ على تواضعه فى الشعور بها من قوله فى نظرة سابقة:- أنْظُر فى نفوس الناس، ثم أنظر فى نفسى فلا أرى شيئاً من آثامهم أو عيوبهم أو أخطائهم كان من المحال أن أرتكبه وأتصف به) فالرجل الذى يرتضى لنفسه الهوان كى يظهر صلته بالإنسانية فى جميع مظاهرها، لايقال إنه لايشعر بالإنسانية إلاّ على سبيل المبالغة. وأما قول مازينى: إن جوتا كان يفصل بين الفكر والعمل ففى آخر قصة «فوست» فى محاورة فوست لنفسه يحتم فى الحياة التّهدِّى من الفكر إلى العمل دائمًا، وقال جوتا: إن نابليون أخطأ فى احتقاره المفكرين النظريين، إذ أن الفكر يؤدى إلى العمل، ولكن مازينى يعنى نوعًا خاصا

من العمل، وهو العمل الثورى السياسى الذى كان جوتا لايميل إليه. وكان هم مازينى طول حياته القيام به، كما أن جوتا يعترف أنه لايثق بفكر العامة ولا بعملهم إذا أُلقى لهم الحبل على الغارب، فإذا كان كلْ هذا عيبًا فهو من عيوب جوتا. وأما حمل (فيخت) بندقيته فلو أن نابليون تجنب الشَّرَهَ لاستطاع النيل من ألمانيا بإرضاء أطماع دول ألمانيا المتنافرة. أما قبول جوتا وسام الشرف من نابليون فربما كان متورطًا فى ذلك. والواقع أن نابليون كان يعمد إلى إظهار كبار المفكرين الألمان كأنهم ممالئون له توريطًا لهم. وأما خطأ جوتا فى تقدير أماكن الضعف فى دولة نابليون فيكفى فى عذره ما رأى من تخاذل ملوك ألمانيا وقبولهم ألقاب الملك منه، وعلى أى حال فهو خطأ منه. وقد حذر جوتا الألمان من أن تكون لهم أطماع كأطماع نابليون، كما حذّرهم من ارتكاب الفظائع فى الحروب حتى ولو كان ارتكابها تشبهًا بالأعداء، وقال: إن النصر الذى لاينال إلاّ بارتكاب الفظائع غير جدير بأن ينال. وكان مازينى يعيب على جوتا اهتمامه بالفردية فى أدبه. ويرى أنه من المستحيل التوفيق بين الفردية والجماعة بينما كانت طريقة جوتا أن يعطى آحاد قصصه الحرية لمحاولة التوفيق بين طباع الفرد وحقوق الجماعة. فمن استطاع التوفيق تثقف وتعلم، ومن لم يستطع خاب أو هلك. وإذا قرأنا كتاب (واجبات الإنسان) لمازينى نراه يحث على الواجبات وضبط النفس كما حثَّ جوتا، ونراه يرى الجماعة الوطنية حلقة من حلقات الإنسانية العالمية، كما رأى جوتا الذى حذّر العالم من حب السيطرة والتملك. ونحن نرى كتّاب غرب أوروبا يعيبون على الروسيا أن اتساق النظام الشيوعى يقتل الميزات الفردية. وعلى أى حال فإن محاولة جوتا التوفيق بين الغرضين محاولة جليلة. ووسائل اليونسكو التى يقوم بها أخو الدوس هكسلى ووسائل مجلس الأمن فى بث التفاهم بين العالم ونشر السلام هى وسائل جوتا سواء أنجحت أم لم تنجح. وكان ألدوس هكسلى يرى أن أسباب ضياع الميزات الفردية بسَوْقِ الناس على نمط واحد (ستندر يزيشون) موجودة فى الدول الغربية، فالمصانع تخرج له ملابسه وآلاته وأزياءه على نمط واحد، والتخصص فى العمل يقصر فكره على أمر واحد، والجرائد والمجلات والملاهى تهيئ له أخباره وأفكاره وملاهيه على نمط

واحد، والتعبئات العامة فى الجيوش الحديثة تسوق الناس إلى نمط واحد أيضًا. وربما كان ألدوس هكسلى مبالغًا (كما يبالغ فى بعض الأحايين) فى بيان خطر هذا الاتساق، ولكن رأيه معقول. والاعتزاز بالميزات الفردية كما أوضح هى خطة جوتا مع التوفيق بينها وبين الجماعة والعالمية.

وفيما يلى بعض آراء جوتا مع التعقيب عليها:

١ - ينبغى أن يتذكر المرء أن فى نفس كل إنسان خواطر لو عبَّر عنها صراحة سببت استياءً واستهجانًا، والتعبير عنها يكون إما من العجز عن ضبط النفس وإما من قلة التمييز بين ما يليق وما لايليق، وإما من التعود على الانسياق فى شرح خطرات النفوس، كما يفعل الشعراء والكتاب، وإما بالعدوى فى البيئات غير المثقفة التى يدعو فيها استرسال إنسان فى هذا الامر إلى استرسال أصدقائه ومعاشريه، وهذه النظرة تذكرنى قصة تمثيلية من تأليف يوجين أونيل الأمريكى فيها يتحدث كل أناسى القصة بحديثين، وينطقون بقولين، أولاً القول الذى لايضير سماعه والذى هُيِّئَ للقول، وثانيًا القول الذى يعبِّر عما فى النفس فتسمع إنسانًا يُظْهر لآخر المودة فى حديثه الأول، ثم يعقبه بصوت منخفض حديث نفسه الذى يدل على كذب الحديث الأول يُعبِّر عن الحقد والذم، ولو كانت هذه سنةً جارية فى الحياة لما استطاع أن يتعاشر الناس، ومن قبيل هذا ما ذكره جوتا نفسه عن حديث نفسه عندما قال: إنه من حماقة حب العظمة الباطلة كان يجول بخاطره أن أمه حملت به سفاحًا من أمير جليل الشأن، ولم يكن جوتا عاجزًا عن ضبط لسانه، وإنما آثر هوان نفسه ووخزها كى يعظ الناس ويعطيهم درسًا كما فعل جان جاك روسو فى بعض اعترافاته، ولم يكن روسو فاقد الشعور، بل كان شديد الإحساس بما يؤلم. وقد اتخذ بورن اعتراف جوتا دليلاً على العقوق الفاضح وفقدان الإحساس بالكرامة والتملق للأمراء، وجعل اعتراف جوتا هذا إظهاراً للطبع الغالب عليه، ولعله قد غلبه طبع صراحة صاحب الفن، أو غلبه دافع خفى نفسى إلى التكفير عن الخاطرة بإعلانها للناس.

٢ - إنما تراد التقوى لتثقيف النفوس أرفع ثقافة، وللبلوغ إلى الطمأنينة والسكينة. أما الذين يقولون: إن التقوى غاية فى نفسها، فإنهم ينتهون إما إلى

مغالطة أنفسهم، وإما إلى مغالطة الناس ـ وهذه النظرة هامَّة؛ لأنها توضح طريقة جوتا فى نظره إلى الأمور، إذ كان يرى أن قيمة كل أمر حتى التقوى وهى أطهر الأمور إنما هى فيما يُكْسبُ النفس من ثقافة. وقيل إن هذا نوع من الأثرَة وحب الذات، ولكن يستطيع جوتا أن يقول أن الأثرة المكروهة تنافى الثقافة النفسية. وإذا قيل: إن التقوى إنما تراد لطاعة الله، قال جوتا: إن طاعة الله فى تثقيف النفس وتهذيبها. وهذه النظرة هامة أيضًا؛ إذ توضح قوله: إن من يتخذ الوسيلة غاية فى نفسها قد يضل عن الغاية الأصلية، وقد يتخذ للغاية الثانية (أى للوسيلة التى صارت غاية) وسائل تنافى الغاية الأصلية. فكم من أناس مع التقوى والتدين يتخذون وسائل تخالف مقاصد التقوى والتدين السامية النبيلة ويُحِسُّون إحساسات تناقض غاياتها السامقة.

٣ ـ إنما يكون الواجب حيث يُحِبُّ المرءُ الأمر الذى أمرته به نفسه وفرضته عليه وإنما يريد جوتا ألا يفصل بين الواجب والسرور بعمل الواجب وما كان يَغْرُب عن باله أن ضبط النفس الذى يحث عليه يقتضى حلمها على مالا تود من الخير وفطامها عما تحب من الشر، ولم يخفَ عليه معنى قول عمرو بن كلثوم.

ولكن فطام النفس أعسر محملاً من الصخرة الصَّمَّاءِ حين ترومها

(أعسر أى أصعب وأشد) ولم يَغِبْ عنه معنى قول البوصيرى.

والنفس كالطفل إن تُهْمِلْهُ شبَّ على حب الرضاع وإن تَفْطِمْهُ ينفطمِ

ولم يفُتْهُ أن النفوس إذا لم تعالج بالضبط يوشك أن يصدق فى كثير منها قول الحُصين ابن المنذر.

أمرَتْهُ نفس بالدناءة والخنا ونهته عن طلب العُلا فأطاعها

ولكن جوتا رأى أن من عمل على تكرُّه وبغض لما يعمل غير جدير بأن يُدْعى مُؤدِّيًا لواجب، فإن نفسه قد تكون منطوية بسبب هذه التأدية على خبث وحقد وغيظ ومكر وقسوة ونفاق وتضليل وغلظة وكذب وتهيئة السوء وحب الانتقام،

فيضرُّ ويؤذِى نفسه كما يضر ويؤذى غيره. وهذه النظرة توضح اهتمام جوتا بالصواب والصدق، والحق فى جوانب القول المختلفة، فهو يرى ضبط النفس ويرى مع ذلك ماقد يكون فى قهرها وإرغامها من شر. ويرى أن صفات الشر المنبعثة من الرغم والتكره فى العمل من غير سرور به قد يزيد شرها على فائدة العمل الذى أداه المرء مكرهًا، فهو إذًا غير جديرٍ بأن يدعى مؤديًا الواجب.

٤ ـ ينبغى أن نتذكر أنه كما أن عظماء الرجال يكسبون نسيج الإنسانية متانة فى النسج، ويعينون إلى حدّ ما طراز ذلك النسيج، فإن عامة الناس هم الذين يكسبون نسيج الإنسانية سعة وعرضًا وطولاً وعظمة بتلك السعة، فهما مثل السدى واللحمة. ولايستغنى صنف عن صنف من الناس. وهذه كلمة من الكلمات العديدة التى يظهر جوتا بها شعوره بالإنسانية، ومثلها قوله فى نظرة سابقة (كل إنسان مهما كان مستقلا عن الناس، فى عيشه، إما مدين وإمّا دائن للناس فى الأقوال والأعمال والآراء والإحساسات).

٥ ـ كما أن التفكير النظرى يؤدى المرء عن طريق المشاهدة والتطبيق إلى فهم الحقائق وإدراكها، كذلك ينتهى المرء بالمشاهدة والتطبيق إلى الفكر النظرى، ولا غنى للإنسان عن اتباع الطريقتين، وفى هذه النظرة استدراك على منيريد أن يقصر الطريقة الحديثة فى الفكر والاستنتاج على الوصول عن طريق المشاهدة والتطبيق إلى الفكر النظرى العام، وهى الطريقة التى عممت واتبعت وقرِّظتْ بسبب سوء الأخذ بالطريقة الأخرى وقهر الشواهد على أن تؤيد ما بدئ به من التفكير النظرى. ولكن الواقع إن الإنسان من عهد أن كان ساكنًا فى الكهوف إلى عهدنا هذا يستخدم الطريقتين كلا منهما فى مكانها ووقتها ومناسبتها.

٦ ـ إن المقاصد الأكثر سموا ورفعة أعظم أثراً فى النفس وإن لم تتحقق وتنجح من المقاصد التى هى أقل سموا ورفعة؛ لأن المرء عندما يطلب الأولى ويفكر فيها ويعمل لها تنمو جوانب نفسه وعقله بالتهيؤ لطلبها والسعى فى سبيلها، ويكون أثرها فى نفسه أعظم وأتم نفعًا من المقاصد الثانية ـ وهذه النظرة تدل أولاً على حث جوتا الناس على المقصد الأسمى، وثانيًا على تمييزه بين المقاصد والوسائل؛ فإنه عندما قال: (إن الإنسان لايستطيع أن يصل إلى الكمال

غير المحدود الاّ عن طريق الأمر المحدود، ولا يستطيع أن يبنى مثال الكمال إلاّ على الأمور الواقعة) كان يعنى الوسائل التى يتخذها المرء فى سبيله.

٧ ـ ينبغى للمرء مهما أجاد فى عمله أو فكره ألا يحسب أن الناس كانوا يرقبون مجيئه إلى هذا العالم، وأنهم ماكانوا يستطيعون أن يعيشوا من غير عمله أو فكره، فكثيرًا مايخادع المرء نفسه حتى نفس من ليس فيه غناء. وإنما هذا مصداق قول أناتول فرانس: إن كل حى من الأحياء حتى ولو كان كلبًا صغيرًا يرى أنه مركز الكون، ومحور العالم. ولعلّ فى قوله بعض المبالغة. أما جوتا فإنه لايريد أن يصرف المجدّ عن العمل والفكر، وإنما يريد منه أن يعرف الأمور على حقيقتها، وأن عمل المرء مهما كان عظيمًا إنما يكون عظيما بالإضافة إلى عمل غيره من الناس، وهذا من شعوره بتماسك الإنسانية وتضافرها ووحدتها. وعلى ذلك فإن قول كارليل: لو خيرنا بين أن نفقد إمبراطورية الهند وبين أن نفقد مؤلفات شكسبير لاخترنا أن نفقد إمبراطورية الهند، ليس معناه أن الناس ما كانوا يستطيعون أن يعيشوا من غير شعره، ومافيه من ثقافة وفكر ووصف للنفوس.

٨ ـ كان الإنسان دائمًا يعيش تحت ظلال الحروب المتوقعة، لأنه فى جميع تاريخه كان يحاول أن يسيطر على غيره وهو غير مسيطر على نفسه حتى فى بحثه عن الجمال ـ ويعنى جوتا بالجمال المعنى الأعم الأشمل، وفيه معنى الإصلاح والتنظيم والتنسيق. وفى هذا القول إشارة إلى خطة الساسة الذين يفضلون اتساع دولتهم طولاً وعرضًا بدل اتساعها عمقاً بالإصلاح الذى فى كل دولة مجال كبير له. وفضلاً عن حب السيطرة على غيرهم فقد كان يغريهم بذلك خشية إغضاب الطوائف والآحاد إذا مسّ الإصلاح مرافقهم الخاصة، أو الاعتزاز بكرامة قومية مؤسسة على التغافل عن أوجه النقص. ولكن الإصلاح الداخلى يؤدى إلى زيادة عدد السكان، وهذه الزيادة تبعث على طلب السيطرة على غيرهم، إلا إذا كان ضبط النفس المنشود يشمل أيضًا ضبط النسل وتحسينه، وهو ما يقول به كثيرون الآن.

٩ ـ إن ملكة التمييز التاريخى هى فى ذلك التمييز العقلى الذى يستطيع به المرء عند قدر المعاصرين وأحوالهم أن يقدر أثر الماضى فى الحاضر ومقدار تغلغله

فيه. وهذه الملكة قد يكتسبها بعض الناس بالقليل من دراسة الماضى، ولايكتسبها غيرهم بالكثير من تلك الدراسة، شأنها شأن التجارب التى قد يهتدى بالقليل منها إنسان، ولا يهتدى بالكثير منها آخر. إما لأنه خيالى النزعة، وإما لشرود لبه، أو استغلاق عقله، وإما للزهو والثقة بالنفس البالغة فوق حد الاعتدال وإما لأن المرء رهن إحساساته فهو لايملك أمره.

١٠ ـ إن فطنة الإنسان إلى رجاحة فكرة وإلى فائدتها لاتدلُّ على أنه قادر لامحالة على الاستفادة منها بتطبيقها. وكثيرًا ما ابتكر الناس أمورًا نافعة وظلت مدة طويلة لا أثر لها فى حياتهم، إما من نقص فى التطبيق، وإما من إحجام الناس عن كل جديد. بل إن فى العقل ما هو أغرب من ذلك، فقد يفطن المرء، إلى رجاحة الفكرة، ومع ذلك تظل هى ونقيضها فى عقله، كل يحتل مكانًا خاصا.

١١ ـ إن كتابة التاريخ قد تكون طريقة من طرق التخلص من الماضى. ولعلَّ هذا مثل أن يكون الشاعر أو الكاتب فى قيد حادث ماض أو شعور قديم فلا يتخلص منه إلا بأن يعبّر عنه فتطمئن نفسه وتستأنف فى الحياة أعمالاً وإحساسات جديدة.

* * *